المرأة والجنس

نوال السعداوي

المرأة والجنس

تأليف
نوال السعداوي

هنـــداوي

المرأة والجنس

نوال السعداوي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٨٤٠ ٢

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيدة الدكتورة نوال السعداوي.

المحتويات

ثمن الكتابة	٧
كلمة قصيرة	١٣
تقديم	١٥
عن جسم المرأة	١٩
مفهوم العذرية	٢٥
البنت	٣٩
التربية والكبت	٤٥
الطبيعة بريئة	٥٧
الأسباب الحقيقية	٦٩
علاقات نفعية	٧٧
السيد والعبد	٨٧
قيم مناقضة	٩٥
الأسرة والمدنية	١٠١
ما هو الحب	١٠٩
التمويه	١٢١
خطوات على الطريق	١٢٧

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدت وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحت أقل حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدق بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّة ورثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وأنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التنهدات، نساء ورجال من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، امال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو.

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.
– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟
– إيه يا حاج!
وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.
– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطُّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.
– كم عمرك؟
– مش فاكرة.
– مش معقولة انتي.
– انتي اللي مش معقولة.
– ازاي؟
– إيه يهمك من عمري؟

– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
– ليه؟
– مش عارفة.

(انتهت المقدمة)[١]

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

[١] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

كلمة قصيرة

إنَّ التجاوب الشديد الذي حدَث بين القراء والقارئات وبين الطبعة الأولى من كتاب المرأة والجنس، كما أنَّ نفاد الطبعة الأولى في وقت قصير، ومطالَبة كثير من الناس بطبعة ثانية؛ كل ذلك دفعني إلى أن أقوم بعمل الطبعة الثانية، وأن أُضيف بعض النقاط التي كانت تنقص الطبعة الأولى.

وقد لاقتِ الطبعة الأولى تأييدًا كبيرًا من مختلَف الكُتَّاب والكاتبات في الصحف والمجلات، وأثارت العديد من المناقَشات في البيوت والمكاتب والندوات، وجاءتني رسائل كثيرة من قراء وقارئات يُطالبون بالمزيد من هذه المعلومات الضرورية في الحياة، وقد سعدتُ كل السعادة بهذا التأييد، وأعتقد اعتقادًا راسخًا بأن أغلبية أفراد مجتمعنا يتحمَّسون للمعرفة.

وقد كان هناك بطبيعة الحال بعض أفراد (أحمد الله أنهم قلَّة قليلة جدًّا) أفزعتْهم المعرفة كما يُفزِع الضوءُ القوي عينَين تعوَّدتا الظلام، وجاءتني بعض رسائل قليلة تُعارض نشر مثل هذه المعرفة، تمامًا كما تَرتفِع اليد فوق العينَين لتحميهما من الضوء، ولا شكَّ أن ضرر إخفاء الحقائق أشد وأفدح من ضرر الكشف عنها. قد يكون الكشف مُفزعًا في بعض الحالات إلى حدِّ الرعدة، ولكن هذه الرعدة مفيدة؛ لأنَّها تهز العقل بقوة لدرجة الإفاقة الكاملة والرؤية الواضحة.

وإني أشكر من كل قلبي كلَّ يد كتبت لي رسالةً سواء بالتأييد أو النقد، وكم كنتُ أودُّ أن أردَّ على جميع الرسائل برسائل خاصة، ولكن ذلك لم يكن مُمكنًا، كما أنني أشكر كل مَنْ أيَّد هذا العمل بأيِّ كلمة صادقة في أي مجلة أو صحيفة.

د. نوال السعداوي

تقديم

لا زلتُ أذكر هذه الفتاة رغم مرور عشر سنوات أو أكثر على اليوم الذي رأيتُها فيه، كنتُ طبيبة ناشئة ولي عيادة في ميدان الجيزة، وما أكثر ما يرى الطبيب في عيادته بشرط أن يجتاز بتفكيره وإحساسه حدود مهنةِ الطب التقليدية، وأن يَتخلَّص بفطرتِه القوية من آثار الأسلوب الضحل الذي درسنا به الطب، والذي يُفقِد المريض إنسانيتَه ووحدته، ويجزئه إلى أعضاء غير مترابطة معزولة عن النفس منفصلة عن المجتمع.

كنت في ذلك اليوم أُفكِّر في غلق العيادة؛ فقد آمنت بعد خمسة عشر عامًا أنفقتها في دراسة الطب وممارسته داخل الوطن وخارجه أنَّ أكثرية المرضى ليسوا مرضى، وإنما تدفعُهم ظروفهم الاجتماعية السيئة إلى الإحساس الدائم بالمرض، وأن معظم الحالات المرضية فعلًا تُشْفَى وحدها بقوة الطبيعة وإرادة الإنسان في الحياة.

في ذلك اليوم كنتُ أجلس أُصمِّم بيني وبين نفسي على غلق عيادتي الطبية حين دخلَت هذه الفتاة، شدَّتني إلى عينَيها نظرة غريبة مذعورة تبحث بلهفة في عيني عن النجدة، وبمرور السنين نسيتُ ملامح الفتاة تمامًا لكن هذه النظرة في عينيها انحفرت في ذهني وأصبحت جزءًا مني.

لم تكن وحدها، كان معها رجل قال بصوتٍ غليظ مُنفعِل: أرجو يا دكتورة أن تفحصيها.

ووجهتُ سؤالي إلى الفتاة قائلة: بم تشْكين؟ ولكنها أطرقت ولم تردَّ، وقال الرجل بصوت أكثر غلظة وانفعالٍ أشد: تزوَّجنا بالأمس واكتشفتُ أنها ليسَت عذراء.

وسألته: وكيف اكتشفتَ ذلك؟

وقال بغضب: هذا شيء معروف؛ لم أرَ دمًا أحمر!

وحاولت الفتاة أن تَفتح فمَها لتقول شيئًا، لكنه قاطعها قائلًا: إنها تدَّعي أنها بريئة؛ ولهذا جئتُ بها إليكِ لتفحصيها.

واتَّضح لي بعد الفحص أن الزوجة تملك غشاء البكارة وأنه سليم تمامًا، ولكنه من ذلك الذي يُسمَّى في الطب بالنوع «المطاط» يتَّسع ويضيق بمرونة دون أن يَتمزَّق ودون أن تسيل منه قطرة دم واحدة.

وشرحتُ الأمر للزوج بدقَّة، وكان رجلًا مُتعلمًا سافر إلى الخارج في بعثة، وخُيِّل إليَّ أنه اقتنع، وتنهَّدت العروس كأنها تتنفَّس لأول مرة بعد طول اختناق.

لكنَّ الأمر لم يكن بهذه البساطة، بعد أيام قليلة جاءتْني الفتاة وحدها، لم يكن وجهها هو وجه فتاة الثامنة عشرة التي رأيتُها منذ أيام وإنما وجه امرأة عجوز شاخت قبل الأوان، ورسم الحزن والألم على وجهها تعبيرًا غريبًا أشبه بوجوه الموتى التي رأيتُها كثيرًا في ظلِّ مِهنة الطب.

وقالت بصوت مشروخ: طلَّقَني وكادت تكون فضيحة لولا أنَّ أبي تكتَّم الأمر.

وسألتها: وهل يفهم أبوك؟

وهزَّت رأسها بالنفي وكَسَتْ عينَيها الذابلتين سحابة أوحت بدموع سالت وجفَّت حتى نضجت تمامًا.

وقالت: لا أحد يعرف براءتي إلا أنتِ يا دكتورة، وأنا الآن أعيش في خوفٍ من انتقام أبي وأخي.

ذهبتُ معها إلى أبيها وشرحتُ له الأمر، قلت له إن ابنته عذراء، وإن غشاء البكارة من النوع المطاط الذي لا يتمزَّق إلا عند ولادة أول طفل، ودهش الأب حين سمع هذه الحقيقة العِلمية وضرب كفًّا بكف وقال في غضب: هذا يعني أن ابنتي قد ظُلِمَت.

قلت: نعم.

قال: ومَن المسئول عن هذا الظلم؟

قلت: أنتم ... زوجُها وأهلها!

قال بغضب: بل أنتم المسئولون يا أطباء؛ لأنَّكم تَعرفون هذه الحقائق وتُخفونها عن الناس، ولولا هذه الحادثة التي حدثت لابنتي بالصدفة لما عرفتُ شيئًا، لماذا لا تَشرحون هذه الأمور لكل الناس؟

إنه واجبكم الأول حتى لا تُظلم مثل هؤلاء الفتيات البريئات!

وصممتُ يومها على أن أعود إلى مكتبي وأكتب شيئًا في هذا الموضوع لكني رأيت أن الأمر يحتاج إلى علاج متعدِّد النواحي، فليس هو موضوعًا طبيًّا فحسب، وإنما هو موضوع اجتماعي واقتصادي وأخلاقي، ولا يُمثِّل فيه الطبُّ إلا جانبًا واحدًا.

ومرَّ عام وراء عام وقصص أخرى بمشاكل أخرى تمر أمام عيني، ومآسٍ عديدة لفتيات ونساء وأطفال راحوا ضحية الجهل الشائع والتقاليد السائدة، بعضهم مات موتًا حقيقيًّا أثناء عملية إجهاض أو عملية ختان أو ولادة تحت ظروف سيئة، أو حوادث قتل أو اعتداء لعدم ثبوت دم العذرية، وبعضهم مات موتًا نفسيًّا واجتماعيًّا بعد مأساةٍ بسبب أو بآخر، وما أكثر الأسباب التي تتعرَّض لها المرأة في مجتمعنا لتُقْتَل نفسيًّا وتعيش عمرها في حالٍ تجعل حياتها كالموت، بل إن الموت قد يكون أرحم في كثير من الأحيان.

وقد ساعدتْني أسفاري المتعدِّدة لمُعظم بلاد العالم أن أحيط بوضع المرأة في مختلف المجتمعات المتقدِّمة والمُتخلِّفة، الرأسمالية والاشتراكية.

واستطعتُ أيضًا من خلال قراءاتي في العلوم الأخرى غير الطبِّ والتاريخ والأدب أن أتفهَّم كيف ولماذا فُرضَت القيود على المرأة.

هذا وإنَّ تجربتي الخاصة كامرأة تُزوِّدني بحقيقة أحاسيس المرأة العميقة. وما أحوج العالم إلى معلومات صحيحة عن المرأة تُغيِّر المفاهيم الخاطئة التي أُشِيعَت عنها، وتُصحِّح المعلومات التي راجت عنها في العالم، والتي كانت تُكْتَب في معظم الأحيان بأقلام الرجال.

ولهذا لم تكن هذه المعلومات تعبيرًا عن حقيقة المرأة، ولكنها كانت وجهة نظر الرجل في المرأة، وما أكبر الفارق بين الحقيقة وبين وجهة النظر!

نوال السعداوي
ديسمبر ١٩٧١م

عن جسم المرأة

لا شكَّ أن قصة العروس التي قدمتُ بها هذا الكتاب تَفرض عليَّ أن أبدأ ببعض المعلومات والحقائق الطبية والتشريحية لأعضاء المرأة التناسُلية التي كان نصيبها من الجهل والتجهيل والاضطهاد أكبر من نصيب أيِّ أعضاء أخرى لأيِّ كائن حي ظهر على وجه الأرض.

وإنَّ البدء بالتعريف بأعضاء جسم المرأة لا يعني على الإطلاق أنَّ الجهل بالتكوين الجسمي للمرأة أكثر شيوعًا أو خطورة من الجهل بتكوينها النفسي أو العقلي؛ لأنَّ العكس هو الصحيح؛ فالجهل بنفس المرأة وعقلها أشد انتشارًا من الجهل بجسم المرأة.

لقد فرضت الظروف الاجتماعية منذ تاريخ بعيد أن تكون المرأة جسدًا فحسب، وساعد ذلك على اندثار نفسها وعقلها في طيِّ النسيان، وجَهِلَ الناس بمرور الزمن أن المرأة يُمكِن أن يكون لها نفس وعقل كنفس الرجل وعقله.

وقد قال كينيث ووكر: «إنَّ جهل الرجل بالمرأة لا يعني جهله بجسم المرأة ورغباتها والوظائف الفسيولوجية للجنس فحسب، ولكنه يعني أيضًا الجهل بما هو أهم وأخطر، ذلك هو الفهم الإنساني للمرأة كإنسان مثله تمامًا.»

لا شك أن تلك المحظورات والقيود التي فرضها المجتمع على المرأة وبالذات على أعضائها التناسُلية (لأسباب سأُوردُ ذكرها فيما بعد) قد ساعَدَ على تشويه معنى العلاقة الجنسية، وارتبطت في الأذهان بالإثم والخطيئة والنجاسة، وغير ذلك من التعبيرات المعيبة التي جعلت الناس يخشَون الحديث عن الجنس؛ وبالتالي أصبحوا يجهلون عنه وعنها الكثير.

والجهل هنا لا يعني غياب المعلومات، لكن ترويج المعلومات الخاطئة أشدُّ أنواع الجهل، وقد يكون من الأفضل للإنسان أن يواجه الحياة بلا معلومات على الإطلاق على أن يُواجهَها بمعلومات خاطئة تُفسِد فطرته وذكاءه الطبيعي.

وقد انتشرت المعلومات الخاطئة عن الجنس والأعضاء الجنسية بسبب التكتُّم أو السرية التي تُحاط بها، شأنها في ذلك شأن الإشاعات التي تُروَّج في الخفاء ويتهامس بها الناس سرًّا، فإذا بالحقائق تسقط من الأفواه حقيقة بعد حقيقة ومن فمٍ إلى فم.

بالرغم من أن جسد المرأة كان أكثر حظًّا من نفسها وعقلها، وأنه لم يتعرَّض لذلك الإنكار الذي تعرَّضنا له، إلا أنَّ المجتمع لم يترك جسد المرأة على حالته الطبيعية.

إنَّ الفكرة التي شاعت خطأً منذ التاريخ البعيد على أن الرجل سيد المرأة، وأنها ليسَت إلا أداة لإمتاعه ووعاءً لأطفاله؛ قد أباحَت للمُجتمَع أن يَستأصِل من جسد المرأة ما يشاء ويهمل ما يشاء لتصبح المرأة مجرد الرحم الذي يُنجب الأطفال.

وخيَّم الظلام والإهمال على أعضاء المرأة التي لا تلعب دورًا في عملية الإنجاب والولادة، بل إنَّ بعض هذه الأعضاء كانت تُسْتَأْصَل من جسد المرأة تمامًا، وبالذات تلك الأعضاء التناسُلية الحساسة لمُتعة الجنس.

وكم مِن رجلٍ عاش مع امرأة سنوات وسنوات ومارس معها الجنس وأنجب منها عشرات الأطفال ثم مات دون أن يعرف أن هذه المرأة تَحتوي في جسمها على أعضاء تناسُلية أخرى غير ذلك المهبل الذي عرفه عن طريق علاقته الجنسية بها والرحم الذي حملت فيه أطفاله، ودون أن يعرف أن هذا المهبل وهذا الرحم الذي حملت فيه أطفاله أقل أعضاء المرأة التناسُلية إحساسًا بالجنس؛ لأن وظيفتهما الأساسية ليست الجنس وإنما الحمل والولادة.

ولا شك أن «البظر» (عضو المرأة التناسلي الخارجي) هو أكثر أعضاء المرأة حظًّا من الجهل والتجاهل والإهمال، وفي بعض الأحيان ينظر إليه المجتمع نظرةَ عداء ويستأصلُه بالمشرط كما تُسْتَأْصَل الزائدة الدودية.

والبظر في جسم المرأة ليس زائدة دودية، بل إنه العضو الأساسي الذي عن طريقه تَعرف المرأة لذة الجنس؛ فالبظر (شأنه شأن عضو التذكير في الرجل) يتميَّز بأنه العضو الوحيد الذي يشتمل على أنسجة قابلة للانتصاب أثناء الإثارة الجنسية وعلى أكثر الأعصاب حساسية بلذة الجنس، وهو الذي يقود العمَلية الجنسية من أولها إلى آخرها، وبدونه لا تَصلُ المرأة إلى قمة اللذة التي يصاحبها الإنزال وتَنتهي به العمَلية الجنسية.

ويتشابه البظر مع عضو التذكير عند الرجل في شكله وتكوينه وشدة حساسيته وأهمية دوره في الجنس، ولا عجب في ذلك ولا غرابة؛ فأصلهما واحد في الجنسين، والخلايا

التي تصنع البظر هي نفسها الخلايا التي تصنع عضو التذكير، لكن الذي يحدث خلال تطور الجنين أن البظر في الأنثى يتوقَّف عن النمو في مرحلة من المراحل، وأن عضو الذَّكَر يستمرُّ في النمو فترة أطول.

لكن المجتمَع وقد قرَّر لأسباب اقتصادية أن دور المرأة الوحيد في الحياة هو الإنجاب وخدمة الزوج والأولاد؛ فقد رأى حِرمان المرأة من اللذة الجنسية التي قد تشغلها عن الدور الذي رسمه المجتمع لها.

وقد نتَج عن هذا أَنْ جَهِلَ الرجل بظر المرأة وتجاهَلَه، ولم يعرف إلا المهبل؛ لأنه الأداة الوحيدة لإمتاعه.

وتصوَّر الرجل بسبب الجهل أنه ما دام يصل هو إلى قمَّة اللذة عن طريق مهبل المرأة فلا بد أن المرأة أيضًا تصل إلى قمَّة اللذة عن طريق المهبل، وبسبب الأنانية لم يستطع الرجل أن يكتشف خطأه ويَتعرَّف على الطريق الذي يُمكِن أن يصل بالمرأة إلى اللذة.

وتصوَّر بعض الرجال أن عنق الرحم (وهو الجزء السُّفلي من الرحم الذي يسدُّ فتحة المهبل العلوية) هو أكثر أعضاء المرأة إحساسًا بالجنس، ويظنُّون أن عضو الرجل إذا ما لامس هذا العنق أثناء العملية الجنسية فإن ذلك أكبر مؤثِّر من حيث بلوغ المرأة قمة اللذة؛ ومن هنا الاعتقاد بأن حجم عضو الرجل عنصر هام في الكفاءة الجنسية، وأن الرجل الأقوى جنسيًّا هو صاحب العضو الأكبر أو الأطول؛ لأن مثل هذا الطول كفيل بالوصول به إلى عنق الرحم.

ولا يدري هؤلاء الرجال أن حجم العضو لا يدلُّ بحال على الكفاءة الجنسية عند الرجل، وأن عنق الرحم ليس أكثر أعضاء المرأة إحساسًا بالجنس كما يظنُّون، بل إنه أقل أعضاء المرأة إحساسًا بالجنس، ولا اللذة ولا الألم، وإن كان أشد أنواع الألم كالذي ينتج عن الكيِّ بالنار أو الكهرباء؛ والدليل على ذلك أن المرأة التي تُصاب بقُرحة في عنق الرحم وتذهب إلى الطبيب فإنه يُعالجها بالكي الكهربائي لعنق الرحم دون أن يُعطيها أي مخدِّر ودون أن تشعر بأي ألم.

وقد حرَمت الطبيعة عنق الرحم من الإحساس حتى لا تموت المرأة من الألم حين يمرُّ رأس الطفل المولود من فتحة ذلك العنق الضيق؛ فالمعروف أن عنق الرحم والمِهبَل يَصنعان القناة التي يولد منها الطفل، وأنه لا بدَّ لهذين العضوين أن يتمدَّدا ويتَّسعا ليهبط الطفل بغير ألم، أو بألم بسيط تحتمله الأم الطبيعية. لقد خُلِقَ الرحم والمِهبَل ليخدما الولادة وليس الجنس.

لكن الرجل لا يَعرف ذلك، ويُركِّز في علاقته الجنسية مع المرأة على المهبل أو عنق الرحم ويتجاهَل البظر، وهذا هو أحد الأسباب في أن مُعظَم النساء يتزوَّجن ويُنجِبن عشرات الأطفال ثم يمُتْنَ ويُدْفَنَّ قبل أن يَعرفنَ لذة الجنس أو يصلْنَ مرةً واحدة إلى قمة اللذة.

ومن ضمن المعلومات الخاطئة أنَّ الرجل يتصوَّر أنه الوحيد الذي يقذف حين يصل إلى قمة اللذة، مع أن المرأة أيضًا حين تصل إلى هذه القمة يحدث لها شيءٌ مشابهٌ يُسمَّى الإنزال، لكن الرجل لا يُدرك ذلك؛ لأن المرأة قلَّما تصل إلى القمة معه مهما طالت مدة العملية الجنسية، وأحد أسباب ذلك هو جهل الرجل بأعضاء المرأة الحساسة وأهمها البظر.

(١) وفي أبحاث كينزي (١٩٥٣م) وُجِدَ أن ١٠٠٪ من الذكور يَعرفون قمة اللذة في الجنس قبل بلوغهم سن ١٧ سنة، على حين أن ٣٠٪ فقط من الإناث يَعرفْن هذه اللذة قبل الزواج، وأنَّ قمة اللذة في الجنس لا تَعرفها النساء حقيقة قبل سن ٣٥ سنة؛ وذلك بسبب الخبرة، أو زيادة كمية الدم التي تُغذِّي أعضاء المرأة بعد الحمل، أو لتغلُّب المرأة على عقدها النفسية ... إلى غير ذلك من الأسباب.

وفي بحث والين (١٩٦٠م) على ٥٤٠ زوجة وُجِدَ أن مُعظَم هؤلاء الزوجات لم يعرفن قمة اللذة (الأورجازم) في علاقتهنَّ مع أزواجهن، وأن هذه العلاقة الزوجية لم تكن تُشبع رغبتهن في الجنس، ولكنها كانت تُرضيهن نفسيًّا من حيث القرب من الزوج وإرضاؤه، وكان هذا الرضا النَّفسي يَصرفهن عن الرغبة في بلوغ قمة اللذة في الجنس.

وكذلك وجد سيُفرز (١٩٦٤م) في أبحاثه أن المرأة لم تكن تَنظُر إلى بلوغها قمة اللذة في الجنس كعنصر هامٍّ من عناصر أُنوثتها، كما أنه وجد أن بلوغ المرأة لِقمَّة اللذة لم يكن تلقائيًّا بقدر ما كان مصنوعًا أو أمرًا تتدرَّب عليه المرأة.

ومِن أهم النتائج التي وصل إليها ماسترز وجونسون من أبحاثهما هي ما يأتي:

(١) بصرف النظر عن الفروق التشريحية فإن بلوغ قمة اللذة في الجنس عند الرجل والمرأة مُتشابهان من الناحية الفسيولوجية؛ ففي كلا الجنسَين تحدث نفس العمليات الفسيولوجية من حيث رد الفعل واستجابة العضلات، واندفاع الدم في الأعضاء حتى درجة معيَّنة، وإن قمَّة اللذة تُحدثها العضلات نفسها في الذكور والإناث.

(٢) ليس هناك ما يُسمَّى ببلوغ قمَّة اللذة عن طريق المهبل وحده بدون بلوغ قمة اللذة عن طريق البظر؛ فإنَّ اللذة عن طريق المهبل والبظر تُكوِّنان وحدة تشريحية واحدة،

وإن بلوغ قمة اللذة عملية تَنتشِر في جميع أعضاء المرأة الجنسية، وهي عملية واحدة لا تَتغيَّر بتغيُّر شكل الإثارة الجنسية أو موضعها.

(٣) إنَّ البظر يلعب دورًا هامًّا وأساسيًّا في بلوغ المرأة قمة اللذة.

(٤) إنَّ المرأة شديدة الحساسية للمُؤثِّرات النفسية، وعليها أن تتخلَّص من عقدها النفسية وخوفها أو خجلها؛ فإنَّ أي شرود لذهنها يُقلِّل من درجة انفعالها.

وقد أضاف شيرفي (١٩٦٦م) بعض النتائج الأخرى أهمها الآتي:

(١) إنَّ البظر أكثر أهمية وأكثر حساسية للجنس من الثلث السُّفلي من المهبل، وعلى هذا فإنَّ البظر هو أكبر عضو حساس للجنس عند المرأة وليس المهبل، ولهذا فإنَّ البحث عن لذة الجنس من خلال المهبل كنوع من النضج الجنسي والنَّفسي للمرأة إنما هو بحث غير طبيعي.

ويَنقسِم المهبل إلى جزأين؛ الجزء العلوي ويكون ثلثَي المهبل، وهو جزء غير حساس ليس له دور في الجنس أو اللذة الجنسية، أما الجزء الثاني وهو الثُّلث السفلي من المهبل فهو حساس للجنس ولكنه أقل حساسية من الشفرَين، وهاتان أقل حساسية من البظر.

وتقول د، باردويك: إنَّ النساء اللائي يتصوَّرن أنهن يَصِلن إلى قمة اللذة عن طريق المهبل فقط يَتجاهلن الإثارة التي تحدث للبظر وهن يُحاولن بذلك أن يُظْهِرْنَ «نضوجهن الجنسي»، فهناك فكرة نفسية خاطئة تُوهِم المرأة أن النضج الجنسي معناه أن يكون المهبل هو مبعث اللذة الجنسية، وأن إثارة البظر إنما هي رغبات الطفولة أو المراهقة وليس المرأة الناضجة.

إنَّ اللذة الجنسية عند المرأة واحدة، ليس هناك شيء اسمه لذة عن طريق البظر، ولذة أخرى عن طريق المهبل، فأعضاء المرأة متَّصلة اتصالًا عضويًّا لا انفصام فيه، لكن هذا الفصل بين لذة البظر ولذَّة المهبل قد حدث صناعيًّا بسبب أفكار فرويد ونظرية التحليل النفسي التي اعتبَرَت البظر عند المرأة عُضوًا ذكريًّا إيجابيًّا وُضِعَ خطأً في جسد المرأة السلبي.

وبسبب هذا فقد أصبحت النساء يُفضِّلن الإثارة عن طريق المهبل لأسباب نفسية، ويُفضِّلن الإثارة عن طريق البظر لأسباب جنسية.

وبهذا التخبُّط وعدم الفهم، وبسبب العُقَد النفسية أيضًا واعتبار اللذة الجنسية إثمًا وعيبًا فإن معظم النساء لا يعرفن شيئًا عن قمة اللذة، وكل ما يعرفنه في الجنس هو تلك اللذة الضعيفة أو الرضا النفسي بسبب إرضاء الرجل.

وتصف د. باردويك ثلاثة أنواع من قمة اللذة عند المرأة: النوع المنخفض والنوع المتوسط والنوع المرتفع، وتقول باردويك: إنَّ النوع المُرتفع يشبه قمة اللذة عند الرجل، وتصل إليه المرأة بعد خبرة معيَّنة، وبعد أن تتدرَّب المرأة على أن تتخلَّص من عقدها النفسية وخوفها وخجلها وتستجيب للذة بطريقة طبيعية. ولو أنَّ المرأة عاشت حياة طبيعية خالية من التخويف والعُقَد منذ الطفولة فإنها تبلغ قمَّة اللذة بسهولة وتلقائية كالرجل سواءً بسواء.

إنَّ عدم إحساس المرأة بلذة الجنس يُسمَّى علميًّا باسم البرود الجنسي، وهو أكثر الأمراض الجنسية والنَّفسية شيوعًا بين النساء، ولا أعتقِد أن هناك إحصائية علمية صحيحة يُمكن أن تدلنا بحال من الأحوال على نِسبة إصابة النساء بالبرود الجنسي؛ وذلك أنها تجهل الجنس ذاته، وتجهل أنها مُصابة بالبرود الجنسي، وتَجهل معنى لذة الجنس أو قمة هذه اللذَّة، وتظنُّ أن الجنس ليست له لذة، أو ليسَت له قمة. ومن المعروف طبيًّا أن البرود الجنسي قد يقترن أثناء العملية الجنسية بتهيُّج مِهبلي شديد، بل إن هذا التهيُّج قد يحدث بدون أي مؤثر مباشر للأعضاء التناسُلية للمرأة.

وفي بعض حالات أخرى يستجيب المهبل استجابةً ضئيلة رغم كل المؤثِّرات المباشرة للأعضاء التناسُلية للمرأة أثناء العملية الجنسية، ويرجع بعض العلماء السبب في ذلك إلى أن كثيرًا من النساء يُعانين من القلق خشية الحصول على قمة اللذة، وأن هذا القلق أقوى من رغبتهن أو إرادتهن في الحصول على اللذة.

وتَنعكِس عُقَد الرجل النفسية والجنسية على المرأة وينتج عنها البرود الجنسي. ولعل أهم عُقَد الرجل النفسية والجنسية أنه يفصل بين الحب والجنس فهو في معظم الأحوال يشتهي المرأة التي لا يُحبها، أما المرأة التي يُحبها فإنه قد يَعجز عن الاتصال بها جنسيًّا أو أنه يتصل بها جنسيًّا بشرط أن تظلَّ هي المحبوبة العذراء العفيفة، وبمعنى آخر الباردة جنسيًّا، وتَعتقِد الزوجات على هذا النحو أن البرود الجنسي هو صفة الزوجة المُحترَمة، فإذا بها تتفاخَر ببرودها الجنسي، ويُصبح الاستمتاع الطبيعي بالجنس إنما هو صفة المومسات والعشيقات فحسب، ويستمتع كثير من الرجال بهذا الانفصام في شخصياتهم، وتُصبِح لكلٍّ منهم زوجة باردة شبه مهجورة وعشيقة مرغوبة ولكنها مُحتقَرة.

مفهوم العذرية

أغلب الناس يجهلون الكثير عن ذلك الشيء الذي اسمه غشاء البكارة، ويَعتقدُون أن كل بنت لا بد وأن يَحتوي جسدها على هذا الغشاء، وأنَّ هذا الغشاء لا بدَّ وأن يُفَضَّ في اللقاء الأول بين الفتاة والرجل، وأن نتيجة هذا الفض لا بد وأن يكون دمًا أحمر تراه العين فوق الملاءة، فهل هذا صحيح؟ والإجابة على هذا السؤال هي: لا.

إنَّ غشاء البكارة ليس نوعًا واحدًا وإنما عدة أنواع: النوع الشائع ويُوجَد في حوالي ٧٥٪ من البنات، وهو غشاء رقيق غير مطاط يسدُّ مدخل المَهبل وفي مُنتصفِه فتحة دائرية صغيرة يمر منها الحيض كل شهر، وهي فتحة ضيقة تسمح بمرور طرف الإصبع، وهذا الغشاء حين يتمزَّق (لأسباب مختلفة ومنها الاتصال الجنسي بالرجل) تسقط منه بعض قطرات دم وقد تشعر الفتاة بألم خفيف أو لا تشعر بأيِّ ألم على الإطلاق، وهذا يتوقف على حجم عضو التناسُل عند الرجل وعلى الطريقة التي يُفَضُّ بها الغشاء.

أما بقية البنات (٢٥٪ تقريبًا) فقد خُلِقْنَ بأغشية مُختلفة لا يسيل منها عند الاتصال الجنسي بالرجل قطرة دم واحدة، أحد أنواع هذه الأغشية هو النوع المطاط الذي يَسمح بمرور عضو الرجل دون ألم ودون دم، (حالة العروس السابقة)، وهناك الغشاء ذو الفتحة المُتعرِّجة، حيث لا تكون الفتحة دائرية ومنتظمة وإنما متعرِّجة؛ وبالتالي يُصبح محيطها أكثر اتساعًا من الفتحة الدائرية بحيث يحدث الاتِّصال الجنسي دون تمزق خاصة إذا كان عضو التناسل عند الرجل أصغر قليلًا من المعتاد.

وهناك أيضًا الغشاء ذو الفتحات الصغيرة المُتعدِّدة «كالغربال» الذي يتمزق بسهولة بلا ألم أو دم، ومن المعروف طبيًّا أن نسبة قليلة من البنات يُولدن بغير غشاء على الإطلاق،

كما أنه في بعض الحالات النادرة أيضًا تُولد البنت بغشاء سميك مسدود يحتاج إلى مشرط الطبيب عند البلوغ ليخرج منه دم الحيض.

ومن الناحية الطبِّية فإنَّ غشاء البكارة ليس له أهمية فسيولوجية أو بيولوجية مثله مثل الزائدة الدودية، وليس هناك من ضرر على صحة الفتاة وُجِدَ الغشاء أم لم يوجد، وما إذا كانت فتحته دائرية، متعرِّجة، أو منتظمة، كل ما يهم الطب أن تكون هناك فتحة تسمح بمرور الحيض.

ومن المعروف أنَّ أعضاء الجسم الإنساني تناسُلية أو غير تناسُلية تختلف في أحجامها، وليس هناك جسم مماثل للجسم الآخر تمامًا كالبصمات، فلكلٍّ منا جسمه وبصمتُه وتكوينه الخاص به، وكذلك تختلف الأعضاء التناسلية للرجال والنساء، وكما يتفاوَت حجم عضو التناسل من رجل إلى رجل، كذلك ليس هناك مقياس ثابت موحَّد لفتحة غشاء البكارة في جميع البنات، ولكن ما أتعس تلك الفتاة التي تتزوَّج بالصدفة رجلًا يقلُّ محيط عضو تناسلِه عن محيط فتحة غشائها ملِّيمترًا أو بضعة ملِّيمترات.

فتاة ريفية في السادسة عشرة تقريبًا جاءت إلى عيادتي مع زوجها، كانت شاحبة الوجه نحيلة يُخيَّل لمن يَنظر إليها أنها طفلة في الثانية عشرة؛ فجسمها أصغر من المعتاد، وتصوَّرت أن سوء التغذية هو سبب ضمور جسمها، أما اصفرار لونها الشديد فجعلني أشك في أن هناك تسممًا في الدم، وحينما خلعت ملابسها الريفية الواسعة لاحظت كبر بطنِها، وقال زوجها إنه تزوَّجها منذ عام واحد وإنها حامل في الشهر الخامس أو السادس.

وسألتها السؤال التقليدي: منذ متى انقطع عنكِ الحيض؟

فردَّت قائلة إنها لم ترَ في حياتها دم الحيض.

وقال زوجها: إنها لا تزال صغيرة السن ولم تبلغ الرشد بعد، وربما يكون الحمل هو السبب في عدم ظهور الحيض.

وبفحص الفتاة اتَّضح لي عدم وجود أيِّ جنين في بطنها في الشهر السادس أو الخامس، وإنما هناك ورم غامض الملامح، وبالطبع لجأت إلى فحص الرحم عن طريق المهبل وهنا ظهرت لي حقيقة دهشت لها، فقد كان المهبل مسدودًا تمامًا بغشاء سميك مطَّاط انضغط تحت إصبعي بمرونة شديدة، وكاد طرف إصبعي يصلُ إلى عنق الرحم لا يفصله عنه إلا سمك الغشاء.

وسألت الزوج عما يَذكره عن ليلة الزفاف.

وبسرعة قال الزوج: ليلة الزفاف اتَّصلت بزوجتي ولم يكن هناك دم، لكني لم أشك في الأمر لأنها كانت لا تزال طفلة صغيرة ولم تبلغ الرشد.

وقلت للزوج إن زوجته لا تزال عذراء وإنها وُلِدَت بغشاء بكارة سميك مسدود، وإن هذا الورم في بطنها هو دم الحيض الذي تكوَّم شهرًا وراء شهر ولم يجد منفذًا إلى الخارج.

وبالمشرط فتحت الغشاء فاندفع الدم القديم المتراكم إلى الخارج، ونهضت الفتاة من فوق المنضدة وكأنما تفتح عينَيها لأول مرة بعد مرض مزمن أو تسمُّم طويل الأمد.

وقد قرأت مرةً عن حادثة قتلٍ تُشبه هذه الحالة؛ فقد عثر البوليس على جثة فتاة حامل، واعتقد جميع الناس أنها قُتِلَت دفاعًا عن الشرف، ولكن الطبيب الشرعي شرَّح الجثة وأعلن أن كبر بطن الفتاة لم يكن بسبب الحمل، وإنما هو دم الحيض المُتجمِّع شهرًا وراء شهر بسبب غشاء البكارة السميك المسدود.

وكم من حوادث أليمة قرأنا عنها في الصحف والمجلات، ولعلَّ أحدث قصة قرأتها في المجلة الطبية العراقية الصادرة في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٧٢م بلسان طبيب شرعي عراقي معروف اسمه الدكتور وصفي محمد علي، بالحرف الواحد:

«أتذكَّر وقفةً لي أمام المحكمة الكُبرى ببغداد استُشرتُ خلالها عن تصرف أحد الأطباء الرسميِّين وإبداء الرأي فيما إذا كان يتفق والسلوك المهني الصحيح، وقد طُلب إليه فحص بنت بُغيةَ التأكُّد من أنها مُزالة البكارة قديمًا أو حديثًا أو أنها لا زالت بكرًا، والسبب الذي ألجأ الحاكم إلى طلب الفحص هو أنَّ زوجها أخبر أهلها ليلة زفافها بأنه يشكُّ في عفاف البنت بحجة عدم حصول أي نزيف دموي أثر الجماع، وفحص الطبيب البنت وخرج فسأله أهلها عن النتيجة وألحُّوا عليه فقال لهم: إنَّ البنت ثيِّب (ليست بكرًا) ومن مدة قديمة، فوقع الخبر عليهم كالصاعقة، واشتدَّت ثورة الغضب عند ابن عمها فقتَلَها بعد يوم واحد، بالرغم من أنها — كما أخبر المحقِّق — أكَّدت له بأن ما ذكره الطبيب لا يتفق مع الواقع، وأن بِكْرًا لم يمسَّها، وقد شكَّل الحاكم لجنة لفحص الجثة، وقدمت اللجنة تقريرها بأن غشاء البكارة كان غير مُمزَّق وهو من النوع المطاطي، وهكذا اتضح خطأ تشخيص الطبيب.»

وفي نفس هذا المقال كتب الدكتور وصفي محمد علي أن الغشاء المطاطي ليس نادرًا في العراق كما يتَّضح من الوقائع التي قام بفحصها خلال سنين طويلة؛ فقد ظهر أن نِسبةَ وجوده لآخر إحصاء هي ١١,٢٠٪ كما يتضح من الجدول الآتي:

النوع	العدد	النسبة المئوية
متوسط	١٢٦٥	٤١,٣٢
سميك	٩٥٩	٣١,٣٢
رقيق	٤٩٥	١٦,١٦
مطاطي	٣٤٣	١١,٢٠
المجموع الكلي	٣٠٦٢	١٠٠,٠٠٠

عدد ونوع الأغشية البكارية — تبعًا لطبيعة نسجها — المفحوصة في معهد الطب العدلي (الطب الشرعي) — بغداد خلال سنة ١٩٤٠–١٩٧٠م.

ومن الحقائق الطبية المعروفة كما سبق أن ذكرت أن غشاء البكارة له فتحة صغيرة قد تضيق وقد تتَّسع وقد تتعرَّج وقد تنتظم، وأنه في معظم الفتيات يتمزَّق عند أول لقاء بالرجل، وينتج عن هذا التمزُّق ألم بسيط وبضع قطرات دم، وهذه الحقيقة — بطبيعة الحال — تثبت لنا أن هذا الغشاء رقيق؛ لأنه لو كان سَميكًا ومتينًا لما كان من السهل أن يُمزَّقَ على هذا النحو، ولصَاحَبَ عملية التمزُّق آلامٌ أشد ونزيف أكثر.

وهناك حالات نادرة حين يكون الغشاء سميكًا على غير المعتاد وتُصبح عملية فضه في ليلة الزفاف مؤلِمة للفتاة، وقد تحتاج إلى طبيب، وينتج عن تمزق الغشاء نزيف وليس مجرد بضع قطرات دم.

وهناك حالات نادرة أيضًا حين يكون الغشاء رقيقًا جدًّا أرقَّ من المعتاد فإذا به يتمزَّق عند البنت أثناء استخدامها لفوطة الحيض.

أما الشائع والمعتاد فهو ذلك الغشاء الذي يتمزَّق في أول لقاء بالرجل، ولا يصحب ذلك إلا ألم طفيف وقطرات قليلة من الدم، ولكن هذا الغشاء قد يتمزَّق لأسباب أخرى ولا ينتج عن تمزُّقه إلا ألم طفيف وبضع قطرات دم.

فتاة في الثامنة عشرة جاءتني مع والدها، والقصة أنها فتاة رياضية تُمارس ركوب الخيل والدراجات، قرأ والدها صدفة في إحدى المجلات أن بعض الرياضات مثل ركوب الدراجات أو ركوب الخيل أو القفز من مكان مُرتفع قد يتسبَّب في تمزيق غشاء البكارة عند الفتاة، ومنذ ذلك الحين وهو قلق وقد منع ابنته من ممارسة رياضتها، ولكنه يريد أن يطمئن على سلامة غشائها قبل أن يزوجها لابن خالتها.

وسألتُ الفتاة عن الرياضة التي كانت تزاولها وعما إذا كانت تذكر حادثة معينة أصابتها بشيء من الألم أو أي قطرات من الدم، لكن الفتاة أجابت بأنها لم تتعرَّض لأي حادث، وأن أباها مُبالِغ في قلقه وأنه حرَمها من رياضتها التي تحبها كما تحب الحياة، وقالت بشيء من الأسى: «إذا كان الزواج معناه ألا أمارس الرياضة فأنا لا أريد أن أتزوَّج وأفضِّل الرياضة على الزواج.»

وكنتُ مقتنعة تمامًا بحق الفتاة في الرياضة، ونصحتُ الأب بأن يكفَّ عن قلقه وأن يترك فتاته تمارس رياضتها، لكنه لم يقتنع وألحَّ عليَّ أن أفحصها ليطمئن.

وفحصتُ الفتاة، واتضح لي أن الغشاء من النوع المُعتاد ذي الفتحة المنتظمة الدائرية ولكن في أحد جانبيه شق صغير طوله ملِّيمتران أو ثلاثة، وقد نتج هذا الشق من تمزُّقٍ جانبيٍّ بالغشاء أثناء الحركة الرياضية العنيفة، وشرحتُ الأمر للأب فزاد قلقه واضطرابُه وسألني عما إذا كان التمزق الصغير قد أفقد ابنته عذريتها وأنه لن يكون هناك «دم» ليلة زفافها، وقلت للأب الحقيقة وهي أن مثل هذا التمزق قد زاد — بطبيعة الحال — مِن اتِّساع فتحة الغشاء، وأنه قد لا يكون هناك «دم» ليلة الزفاف خاصة إذا تصادف أن تزوَّجَت رجلًا له عضوُ تناسل أصغر من المعتاد.

وهنا بلغ بالأب القلق حدًّا كبيرًا فارتجف وهو يتساءل في حيرة: وما العمل يا دكتورة؟

وقلت: لا شيء، عليك فقط أن تشرح الأمر للرجل الذي سيتقدَّم للزواج من ابنتك.

وقال الأب في حزن شديد: هذه أكبر كارثة ألَّمت بي.

وقلت: ما الكارثة؟! هل فقدَتِ ابنتك ذراعها أو ساقها أو عينًا من عينيها؟!

وقال الأب: لو فقَدَتْ عينًا لكان ذلك أخف، ولكن أن تَفقد أعزَّ ما تملك …

وهوَّنتُ الأمر على الأب وقلت له: إنَّ أعزَّ ما تملكه ابنته ليس هذا الغشاء الذي تمزَّق دون أن تشعر وهي تمارس رياضتها، وإنَّ أعز ما تَملكُه ابنته هو أعز ما يملكه أي إنسان وهو إرادته الحرة وصدقه مع نفسه ومشاركته في صنع حياة أفضل له وللمجتمع.

لكنه قال: ومَنْ سيُصدق أنها الرياضة يا دكتورة؟ ما من أحد إلا وسيشك في أخلاقها وشرفها.

وردَّت الابنة في غضب: أنا واثقة مِن نفسي ولا تُهمني أيُّ شكوك، والرجل الذي سيشكُّ في شرفي لن أقبله!

وأعجبتْني الفتاة لثقتِها في نفسها، لكنَّ الأب كان قد أصبح على وشك الانهيار، وطلب مني أن أُوقِّع شهادة طبية تُثبِت أن التمزُّق الذي حدث في الغشاء كان بسبب الرياضة وليس شيئًا آخر، وأعطيتُه الشهادة لأهدئه فأمسكها بين يديه بعناية وحرص كأنه يمسك حياته ذاتها، وأخذ ابنته في يده وانصرف.

فتاة في العشرين من عمرها جاءتني مع أمها ناظرة إحدى المدارس الابتدائية، طلبت منِّي الأم أن أفحص ابنتها وأُطمئنَها على سلامة غشائها، وسألت الأم عن السبب الذي جعلها تشكُّ في سلامة غشاء ابنتها، وقالت الأم إنها اكتشفت أن ابنتها تعودت كل صباح حين تغتسل أن تمد أصابعها إلى الغشاء لتقيس فتحته، وإنها تخشى أن تكون ابنتها بهذا الفعل قد أصابت غشاءها بسوء دون أن تدري.

وبسؤال الفتاة قالت إن أمها كانت تُحذِّرها دائمًا من القفز أو نط الحبل خشية أن يتمزق غشاء بكارتها، لكن الفتاة كانت تحب «نط الحبل» وكانت تمارسه في المدرسة، لكن كلام أمها كان قد ترسَّب في نفسها وجعلها تعيش في خوف دائم على غشائها، وفي يوم وهي تغتسل بلغ بها القلق مداه فمدَّت يدها لتطمئنَّ إلى وجود الغشاء، وحينما عثرت بطرف إصبعها على الفتحة الصغيرة فزعت وظنت أن الغشاء تمزَّق، لكن إحدى صديقاتها قالت لها: إن لكلِّ غشاء فتحة صغيرة تسمح بمرور الحيض، ومن هنا بدأت الفتاة تقيس هذه الفتحة لتطمئنَّ على أنها فتحة ضيقة لا تتسع يومًا بعد يوم بعد نط الحبل.

وفحصتُ الفتاة واتَّضح ما أكَّد كلامها؛ فالغشاء سليم ولكن فتحته كانت قد اتسعت ليس بسبب نط الحبل ولكن تكرار وضع الإصبع في الفتحة جعل محيطها يَرتخي بعض الشيء فاتسعت الفتحة. وكثيرًا ما يحدث هذا الاتساع في فتحة الغشاء في الفتيات اللاتي يمارسن العادة السرية بكثرة في فترة المراهَقة.

وقالت الأم في ذعر: هل سيُؤثر ذلك على عذريتها؟

وقلت للأم الحقيقة؛ وهي أن ابنتها حين تتزوج قد لا تكون هناك قطرات دم اللقاء الأول مع الرجل.

وكادَت تُصاب الأم بانهيار عصبي، لكني هدأتها وأعطيتُها شهادة طبية تُبرئ ابنتها من المسئولية، وكانت الابنة بريئة فعلًا، أما المذنب الحقيقي فهو الأم بتربيتها الخاطئة

لابنتها وبث الذعر والقلق في نفسها على الغشاء، بل لعلَّ الأم أيضًا بريئة بسبب جهلها بالتربية السليمة، وأن المذنب الحقيقي هو المجتمع الذي جعل مقياس الشرف ودليله غشاءً رقيقًا معرَّضًا لكل ما يُمكن أن يتعرَّض له غشاء رقيق في الجسم من إصابات وارتخاء ورضوض وخدش وتمزق، ويُمكننا أن نتصوَّر الضرر النفسي البالغ الذي تُصاب به الفتيات في مجتمعنا حين يدركن أن في نهاية مهبلهنَّ غشاءً رقيقًا هو أعز ما يَملكن، وعليه يتوقَّف مستقبلهنَّ وشرفهن وحياتهن، وأن عليهن المحافظة عليه بكل الوسائل وإن اقتضى ذلك أن تكفَّ الفتاة عن الحركة والرياضة، وأن تمشيَ وساقاها ملتصقتان، وأن يتراكم الشحم فوق جسدها الكسول البطيء، وأن يتراكم الوهم في نفسها، وأن تَعيش في قلقٍ دائم على غشائها، وأن تفقد كل مقوِّمات النفس القوية والجسم الصحِّي القوي فلا تكاد تصلح بعد ذلك إلا لحياة باهتة باردة راكدة تعيشها في كنف زوج أثبتت له شرفها ليلة الزفاف ببضع قطرات دم، وتُحاول كل ليلة أن تثبت له هذا الشرف بجهلها وتجاهُلها أي حركة أو أي مُتعة تَثِي بخبرتها بذلك الذي يطلق عليه اسم الجنس.

عرفنا الآن بعض معلومات عن ذلك الغشاء الذي يجهله كثيرون منَّا، وعرفنا أن عدم حدوث قطرات الدم ليلة الزفاف ليس معناه أنَّ هذه الفتاة مارست الجنس من قبل، وإذا أضفنا إلى نِسبة الخمسة والعشرين في المائة من البنات اللائي يُولدن غير عذراوات بمفهوم العُذرية السائد الخمسة في المائة من البنات اللائي يفقدن هذه العُذرية بسبب حادث غير جنسي أدركنا أن حوالي ثلاثين في المائة من الفتيات يُظْلَمْنَ ظلمًا بينًا ليلة الزفاف، وكيف يقبل المجتمع أن يُدين هؤلاء الفتيات وأن يُوقع عليهن عقوبات وهن بريئات لا يَدرين شيئًا عن الذنب الذي يُعاقَبْنَ من أجله.

ولكن المجتمع يقول: إنه لا بدَّ وأن يكون هناك دليل مادي على شرف البنت، وإنه إذا كانت الأقلية تُظْلَم من وجهة النظر الطبية فإن الأغلبية من البنات (حوالي ٧٠٪) يُمكن الحكم على شرفهنَّ بوجود هذا الغشاء، وإلا فكيف يُمكن الحكم على شرف البنت؟!

وللرد على هذا السؤال أسُوق نموذجًا من بعض الحالات التي كانت تتردَّد على عيادتي.

جاءتني حاملًا في الشهر الخامس، وحينما هممت بأن أفحصها عن طريق المهبل هبَّت مذعورة وأفهمتني أنها لا تزال عذراء، وقصَّت عليَّ قصتها، إنها طالبة بالجامعة، ولها زميل يحبُّها وهي تبادله شعوره لكنَّهما لم يُفكِّرا في الزواج؛ لأنه فاشل في دراسته ولا تعرف مستقبله بعد، لكنهما كانا يلتقيان ومن حين إلى حين يُمارسان الاتصال الجنسي السطحي،

دون أن يُصاب غشاء البكارة بسوء، وفعلًا ظل غشاء البكارة سليمًا، لكن أحد الحيوانات المنوية استطاع في مرة من مرات الاتصال السطحي أن ينفذ من خلال فتحة غشاء البكارة، وأن يَسبح صاعدًا إلى الرحم، وحملت الفتاة جنينًا في أحشائها رغم بقائها عذراء.

وطلبت مني الفتاة أن أُخلِّصها من الجنين عن طريق فتح بطنِها حتى تحتفظ بعذريتها، فاعتذرت عن إجراء مثل هذه العمَلية وانصرَفتِ الفتاة، لكنِّي التقيت بها بعد بضع سنوات وعرفت أنها ذهبت إلى طبيب آخر وأخرج لها الجنين من بطنها، وأنها تزوَّجت مهندسًا ناجحًا وأنجبت طفلين.

وتخيَّلت يومها هذا المهندس الناجح في ليلة زفافه وهو يقوم بالإجراءات والخبرات التقليدية للتأكُّد من عذرية فتاته ويُسعدُه كل السعادة أن يجد غشاءها سليمًا، ولا يكاد يهمه أن يرى شقًّا طويلًا في بطنها، بل لا يُهمُّه أن يجد شقًّا بأيِّ طول في قلبها أو كبدها أو مخها، ولكن أن يجد في غشاء بكارتها شقًّا وإن كان طوله لا يزيد عن ملِّيمتر فهذه هي الطامة الكبرى.

ولا أظنُّ أن المجتمع يجهل أن هناك من الوسائل الصناعية ما يُعيد إلى الفتاة عذريتها التي فقدتْها لأي سبب، وأن الدم الذي يظهر ليلة الزفاف ليس دائمًا دم العروس، وإنما قد يكون دم دجاجة وُضِعَ في كيس، أو دم الحيض ذاته حين تُزَف العروس وهي حائض ليظهر دم الحيض على أنه دمُ العذرية، وغير ذلك من الحيل التي تُجيدها الدايات والنساء من ذوي الخبرة بالرجال والحياة.

وكم من القصص والحالات شهدتُها بعيني حينما كنتُ طبيبة بالريف، فلا تزال تقاليد الزفاف الغريبة سائدة في بعض قُرانا، حين تأتي «الداية» وتُمسك العروس من ساقيها كما تُمْسَك الدجاجة قبل الذبح، وتمدُّ إصبعها ذا الظفر الطويل المدبَّب كالسكِّين (غالبًا ما تُطيل الداية ظفر إصبعها من أجل هذه المناسبة) وبهذا الإصبع تفض الداية غشاء بكارة العروس وتجفِّف الدم الذي يسيل في «بشكير» أبيض يختطفه منها أبو العروس ويَرفعه عاليًا ليراه كل الناس ويشهدوا بأعينهم على شرفه وشرف ابنته.

وقد حضرتُ بنفسي بعض هذه الأفراح، وبلغ بي الاستطلاع مداه في بعض الأحيان فجلست بجوار الداية لأشهد بدقة ما تفعله، في إحدى المرات مدَّت الداية إصبعها بعنف داخل مهبل العروس وحينما لم تسقط إلا قطرات قليلة خدشت بظفرها المدبب جدار المهبل فسال الدم غزيرًا كالنزيف وغرق البشكير بالدم وارتفعَت الزغاريد ودقات الطبول، وقلتُ للداية بصوت مُنخفِض إنها أحدثت جرحًا في المهبل، لكنَّها همست في أذني: إنَّ ذلك

ضروري ليكون الدم كثيرًا؛ فالناس يَحكُمون على شرف العروسة بمقدار ما يسقط على البشكير من دم.

وقالت الداية المجرِّبة: حينما كنت أفضُّ الغشاء فقط تسقط قطرات قليلة من الدم لا يراها بوضوح عجائز الفلاحين ذوي الألسنة الطويلة؛ ولهذا تدرَّبت على أن أخدش بظفري الطويل جدار المهبل ليُحدث ذلك النزيف، وقد أصبحت لي سمعة طيبة في البلد، وكلُّ الأسر تحرص على أن أقوم أنا (دون الدايات الأخريات) بفضِّ أغشية البكارة في الأفراح.

ومُعظَم الأطباء الذين عملوا بالريف صادفوا كثيرًا من الحوادث الأليمة بسبب هذه العادة المصرية الغريبة في فضِّ غشاء البكارة بالإصبع، وفي بعض الأحيان يكون إصبع الزوج، وضرره في هذه الحالات أشد بشاعة؛ لأنه إصبع غشيم غليظ لم يَعرف إلا قبضة الفأس، فإذا بهذا الإصبع يندفع بغلظته وجهله الأعمى في مهبل الفتاة الصغيرة، يُمزِّق الأنسجة الرقيقة ويغوص في اللحم والأعصاب مُحدِثًا تهتُّكات قد لا تُشْفَى مدى العمر، ولن أنسى تلك العروس التي حملوها إليَّ في مُنتصَف ليلة زفافها تنزف من مهبلها نزيفًا شديدًا وحينما فحصتُها اتَّضح لي أن هناك ثقبًا كبيرًا في المثانة بسبب إصبع الزوج الطويل الغليظ الذي نفذ من جدار المهبل ووصل حتى جدار المثانة فثقبَه ثقبًا كبيرًا، وهناك كثير من الحالات والحوادث المشابهة التي يصادفها معظم الأطباء في الريف.

ولا يتَّسع هذا الكتاب إلى أن أسرد الحالات التي مرَّت بي سواء داخل عيادتي أو خارجها، والتي تُثبت للمجتمع أن وجود غشاء البكارة أو أن سقوط الدم ليس دليلًا على شيء.

وحينما تتضح هذه الحقائق لبعض الناس يتساءلون في ذعر: ولكن كيف نحكم إذن على شرف البنت؟ ولكن ما هو مفهوم الشرف لدى هؤلاء؟ هل الشرف هو مجرَّد أن يحافظ الإنسان على أعضائه التناسلية؟ هل البنت الشريفة هي تلك التي تحافظ على سلامة غشائها ولا تحافظ على سلامة تفكيرها وصدقها وقدراتها على العمل والإنتاج في الحياة؟ هل البنت التي تكذب تصبح شريفة لمجرَّد أنها وُلِدَت بغشاء بكارة؟ هل من المُمكن أن يكون الشرف صفة تشريحية يولد بها الإنسان أو لا يولد؟ وإذا كان غشاء البكارة هو دليل شرف البنت فما هو الدليل على شرف الرجل؟

ويقول بعض الناس: إنَّ شرف الرجل في غير حاجة إلى دليل، فهل معنى ذلك أنَّ كل الرجال في حكم المجتمع شرفاء؟ ويرد البعض قائلين: إنَّ شرف الرجل يَختلف عن شرف المرأة، «الرجل لا يَعيبُه إلا جيبه» مَثَل من الأمثلة الشعبية الشائعة في مجتمعنا، ومعنى ذلك

أن الرجل شريف طالما هو يعمل ويكسب مالًا بصرف النظر عن علاقاته الجنسية بالنساء، بل إنَّ الرجل في مجتمعنا يفخر بتعدُّد علاقاته مع النساء ويَعتبِر ذلك نوعًا من الانتصار والفوز.

ومن هنا نُدرك أن للمجتمع مقياسَين للحكم على الشرف، وأنه فرَض العفة على النساء وحدهنَّ، ونتج عن ذلك تلك الظاهرة الاجتماعية الغريبة؛ وهي أن المرأة تتحاشى الرجل لتحافظ على شرفها، لكن الرجل يُطارد المرأة؛ لأنه يُريدها ولأن مطاردتها والاتصال بها لا يعيبه في شيء، ويظل الرجل يطارد الفتاة مستخدمًا في ذلك شتى الحيل؛ مرة الحب الجارف، ومرة الوعود بالزواج، ومرة التفاني في الإخلاص إلى الأبد ... إلخ، وحينما تثق به الفتاة وتصدقه يقول عنها المجتمع إنها سقطت، وإذا غدر بها الرجل ولم يتزوَّجها يحكم عليها المجتمع بعدم الشرف، ويقضي عليها وعلى مستقبلها ومستقبل طفلها، أما الرجل فينطلق سعيدًا ناجحًا يُكرر تجاربه تحت سمع المجتمع وبصره.

جاءتني إلى العيادة ذات يوم فتاة في السابعة عشرة تقريبًا، نحيلة شاحبة، أصابع يديها مُشقَّقة مُتورِّمة، أدركت على الفور أنها خادمة في بيت من بيوت الأسر المتوسِّطة، تغسل كل يوم تلالًا من الصحون المُلوَّثة بالسمن والدهن والطبيخ المسبك، كانت تبكي، وبارتجاج جسدها النحيل وهي تنشج لاحظت انتفاخ بطنها، وقصَّت عليَّ قصتها؛ جاءت مع أبيها من الريف إلى القاهرة لتعمل خادمة عند موظَّف كبير بوزارة العدل، قالت لي: إنه وكيل الوزارة أو شيئًا من هذا القبيل، وفي البيت الكبير ذي العدد الكثير كانت تعمل ليل نهار، تَغسل وتَمسح وتُساعد الطباخ في طهي الطعام وإعداد المائدة، كانت ترصُّ أطباق اللحم أمام أفراد الأسرة ولا يكاد يتبقى لها إلا الفتات، وأول كل شهر يأتي أبوها ويأخُذ راتبها ويذهب إلى القرية، ولا يترك لها شيئًا، كان الطباخ ينام في حُجرة فوق السطح، أما هي فكانت تنام على دكة خشبية في المطبخ، كانت راضية بحالها تعمل بلا كلل أو ملل لتُرضي سيدتها صاحبة البيت وتُرضي أباها في القرية، وكان كل شيء يمكن أن يسير على هذا الحال، لولا أن سيدتها تلقَّت نبأ وفاة أحد أقاربها فسافرت إلى الزقازيق بضعة أيام.

ومسحت الفتاة دموعها وهي تقول: لم أكن أتصوَّر أن سيدي البيه يُمكن أن يفعل هذا.

وسألتها: ماذا فعل؟

قالت: جاءني في الليل ولم أستطع أن أمنعه.

وقلت: ثم ماذا؟

قالت: لم أكن أعرف شيئًا وظننتُ أن شيئًا لم يحدث، وحينما عادت سيدتي خِفْتُ أن أقول لها شيئًا، ومرَّتِ الأيام وأحسست أن بطني تكبر وظننتُ أنها ليسَت إلا السمنة، لكن سيدتي لاحظت كبر بطني فسألتْني وهدَّدتني بالطرد فذكرتُ لها حادثة سيدي البيه، وكنت أظن أنها ستعاقبه هو لكنها عاقبتني أنا وطردتني من بيتها وهدَّدتني بأن تَفضحني لدى أبي إذا أنا ذكرتُ اسم سيدي البيه، وهربتُ من أبي؛ لأنه لو عرف سيقتُلني، ذهبتُ إلى طبيب ليُجهضني لكنه طرَدني من العيادة وقال: إن القانون يمنع الإجهاض، مع أنني سمعت من بعض الناس أنه يُجهض النساء نظير عشرين جنيهًا للعمَلية، ولكني لا أملك إلا سبعين قرشًا وفَّرتها من البقشيش الذي كنت آخذه من ضيوف سيدتي.

لا أظنُّ أن أحدًا يستطيع أن يتَّهم هذه الفتاة البائسة بأنها غير شريفة، ومع ذلك فإنها في نظر المجتمع فتاة حامل بغير زواج؛ أي فقدت شرفها؛ وبالتالي تستحق العقاب، وتُواجه هذه الفتاة التعسة المجتمع وحدها، وقد تنهي حياتها بيدها أو بيد أبيها أو من أثر محاولتها التخلُّص من الجنين، أو تعيش حياة ذليلة راكدة هي والموت سواء بسواء، أما سيدها البيه فيظل يعيش في المجتمع الواسع العريض يستمتع بحياته ونجاحه وشرفه المصون في ظل حماية المجتمع والقانون.

وأظنُّ أنه لا يخفى على أحد ما تتعرَّض له الأطفال البنات أحيانًا من حوادث اعتداء، وقد لا تكون البنت قد بلغت الثامنة من العمر بعد، وتفاجأ بذلك الشاب الطائش الذي يعتدي عليها، وقد يكون هذا الشاب خادمًا أو بوابًا، وقد يكون أحد أفراد أسرتها، ولا أعني بأحد أفراد أسرتها ابن العم أو ابن الخال فحسب، ولكنه قد يكون العم نفسه أو الخال نفسه، وفي بعض الأحيان يكون الأخ ذاته.

وقد تنسى الطفلة الصغيرة الحادث أو تذكره كالحلم المزعج وتُفَاجَأ حين تكبر وفي ليلة الزفاف أنها غير عذراء، وقد لا تنسى تمامًا ويظلُّ ذلك الحادث الأليم كامنًا في نفسها يُعذبها ويفتك بصحتها النفسية طوال حياتها، هذا إذا نجت من العقاب الذي يتربَّص بها حين تكبر، وقلما تنجو من العقاب في معظم الأحوال.

ومما يَزيد المأساة أن الرجل المُعتدي لا يبوح بالسر، ولا يعترف بفعلته لينقذ الفتاة، بل إنه أحيانًا ما يشترك في العقاب أو يُوقِّعه بنفسه على الفتاة من أجل حماية شرفِه أو شرف الأسرة.

وكم سمعنا أو قرأنا عن مثل هذه المآسي، لعلَّ أقربها تلك التي قرأناها في جريدة الأخبار بتاريخ ١٠ مايو ١٩٧٢م تحت عنوان: «أحب العم ابنة شقيقه فأرغمه أخوها على

قتلها بالسم»، وتقول كاربن هورني الطبيبة النفسية العالَمية: إن الناس يظنون أن مثل هذه الحوادث نادرة، ولكن نظرًا لأنها تحدُث في سرِّية شديدة فلا أحد يعرفها مع أنها شائعة، وفي سن الثامنة يمكن أن تفقد البنت غشاءها بسهولة وتَنسى الحادث.

أعتقد أننا في حاجة إلى أن نفهم جيدًا ماذا نَعني بكلمة الشرف، مَنْ هو الإنسان الشريف؟ وإذا كان الشرف هو الصدق مثلًا فإن الرجل الصادق يُصبح شريفًا، وكذلك المرأة الصادقة تصبح شريفة. إن المقاييس الأخلاقية التي يضعها المجتمع لا بد أن تسري على جميع أفراده بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو الطبقة الاجتماعية، والمجتمع الذي يؤمن بالعفة في الجنس كقيمة خلقية فلا بد أن تسري هذه القيمة على جميع أفراد المجتمع، أما أن تسري على جنس دون الجنس الآخر أو على طبقة دون الطبقة الأخرى فهذا يدلُّ على أن هذه العفَّة ليست قيمة أخلاقية وإنما هي قانون فرضه النظام الاجتماعي القائم، وقد رأينا في المجتمعات الرأسمالية كيف كان الحكام الرأسماليُّون يفرضون على العمال والأجَراء قيمًا أخلاقية مُعيَّنة تضمن زهدهم في الحياة وقناعتهم بأجورهم الضئيلة وخضوعهم للقوانين الرأسمالية الجائرة وتطوعهم في الجندية للدفاع عن مصالح هؤلاء الحكام وأطماعهم الاستعمارية، هذا في الوقت الذي يستمتع فيه الحكام الرأسماليُّون بقيَم الجشع والنهم والربح المتزايد والإفراط في كل المتع التي حرَّموها على الطبقات الكادحة.

وإذا كان الرجال هم السادة في المجتمع دعوا النساء إلى الالتزام بقيَم الشرف والعفة ليضمنوا خضوعهن على حين يَنطلِق الرجال مُبيحين لأنفسهم الاستمتاع بكل ما حرَّموه على النساء.

ويُخفي المجتمع الدوافع الاقتصادية والاستغلالية من وراء هذه القيم ويسوق دوافع أخلاقية منها الشرف والفضيلة والعفة، وحينما نسأل المجتمع: لماذا يفرض العفة على المرأة وحدها؟ يرد المجتمع بأن هذا طبيعي؛ لأنَّ المرأة غير الرجل، وأن الطبيعة هي التي صنعت كل الفروق بين الرجل والمرأة وليس المجتمع، وحينما نسأل المجتمع: ما هي الفروق بين الرجل والمرأة؟ يصيح قائلًا: إنها فروق ضخمة جدًّا؛ أحدها أن المرأة هي التي تحمل ثمرة العلاقة الجنسية في رحمها جنينًا، ونسيَ المجتمع أن الحمل والولادة لم يُصبحا قيدًا على المرأة إلا بفعل المجتمع حين قرَّر أن الجنين الذي ينمو في أحشائها ويتغذَّى بدمها ولحمها ليس من حقِّها وإنما هو حق الرجل وحده، يمنحه اسمه فيُصبح طفلًا شرعيًّا

ويعترف به المجتمع، أو لا يَمنحه اسمه فيحكم عليه المجتمع بالإعدام وهو لا زال وليدًا يَرضع.

إن المجتمع هو الذي قيَّد المرأة لأسباب من عنده، أما الطبيعة فهي بريئة، وحقائق العلم والطب التي سأُورد ذكرها فيما بعد تُؤكِّد أن الفروق الضخمة التي وُضِعَت بين الرجل والمرأة ليست من صنع الطبيعة.

البنت

حينما تولد البنت، وبالرغم من أنها لا تستطيع النطق أو التعبير عن نفسها إلا أنها تستطيع أن تدرك من النظرات من حولها أنها ليسَت مثل أخيها الولد، ومنذ أن تبدأ الطفلة تحبو أو تمشي تتربَّى على الحذر والخوف على أعضائها التناسلية.

وتنشأ البنات في معظم الأحيان في جو مليء بالتَّحذير والتخويف من كشف أو لمس أعضائهن التناسلية، وتشعر الأم (أو الأب) بالذعر حين تمتدُّ يد الطفلة الصغيرة ابنة الخامسة من العمر لتَستكشِف أعضاءها فتنهرها بشدة وعنف وقد تعاقبها بالضرب أو التأنيب حتى لا تعود إلى ذلك مرة أخرى.

ولا يُمكن أن ننكر أن الأطفال من الذكور أيضًا يعاملون بالمثل إزاء هذه التصرُّفات، لكن نصيب البنت من هذا التخويف والتحذير هو أضعاف نصيب الولد بسبب القيود والمحظورات التي فرضها المجتمع على الإناث، وبالذات على أعضائهن التناسلية؛ وبالتالي يترسَّب في نفس البنت أكثر من الولد الخوف والكبت والعُقَد النفسية والجنسية التي تَمنع نموها الطبيعي ونضوجها في مراحل العمر المختلفة.

ولا تَدري الأمهات والآباء أنه من الطبيعي — بل ومن الصحي أيضًا — أن يَلمس الأطفال ذكورًا وإناثًا أعضاءهن التناسُلية رغبة منهم في استكشاف أنفسهم، ولأنهم يشعرون أيضًا بشيء من اللذة أثناء هذا اللمس.

وجميع الناس بغير استثناء يشعرون برغبة جنسية تحتاج إلى إشباع ... إنها رغبة طبيعية وصحية كالرغبة في الطعام يشعر بها جميع البشر في جميع مراحل العمر.

وكما تختلف الشهية إلى الطعام من شخص إلى شخص، ومن ظرف إلى ظرف؛ فإنَّ الرغبة الجنسية أيضًا تَختلِف وتُعبِّر عن نفسها بوسائل تختلف باختلاف الأشخاص، لكن وظيفتها الأساسية من أجل إشباع الاحتياج الطبيعي في الإنسان وتأكيد وجوده وإثراء حياته الجسمية والنفسية والفكرية والمحافظة على النوع.

وتَتفاوَت شدة الرغبة الجنسية في مراحل العمر المُختلفة، ولكنَّها لا تظهر فجأة (كما كان يعتقِد الكثيرون) في مرحلة البلوغ؛ فهي جزء هام مِن طبيعتنا وتكويننا ينمو بنمونا منذ لحظة الولادة حتى نهاية العمر، ويرى بعض العلماء أن الرغبة الجنسية لا تضعف بالتقدم في السن، وأنها تستمر بنشاطها المألوف إلى آخر العمر، ويرى بعض علماء الجنس أنها أحيانًا ما تقوى وتشتد في الكهولة والشيخوخة بدرجة ملحوظة أطلقُوا عليها اسم «الشباب الثاني»، وأرجعوا ذلك إلى أن الجهاز التناسُلي أقدم الأجهزة وأقواها وظيفة، وأن زوال مشاغل الإنسان من ناحية وزيادة نُضجه الجنسي من ناحية أخرى كفيلان بزيادة قوته الجنسية ونشاطها رغم تقدم العمر.

ويُنكِر هؤلاء العلماء — وفي مقدمتهم العالم الإنجليزي «كوبر» — وجود شيء اسمه سنُّ اليأس سواء للرجل أو للمرأة.

ومن الطبيعي أن الرغبة الجنسية تعبر عن نفسها أثناء الطفولة والمراهقة بطريقة مختلفة عنها في مرحلة النضوج، حينما يمصُّ الوليد ثدي أمه فهو يُشبِع حاجته إلى الطعام ويملأ فراغًا يستشعر خلال ملئه باللذَّة، لكنه في نفس الوقت يبدأ يَستمتِع بأول تلامس مع شخص آخر غير نفسه، وهذا إحساس له لذة.

وحين يُفْطَم فإنه قد يمصُّ إصبعه ليُعيد إلى ذاكرته الإحساس السابق بالرضا، وقد يظلُّ الفم عند الطفل لفترة بمَثابة عضو الاستكشاف لكل ما يُحيط به من أشياء غريبة لم يعرفها من قبل.

ويَلمس الأطفال بنين وبنات أعضاءهم التناسُلية بطريقة طبيعية وصحية رغبة منهم في استكشاف أنفسهم، ولأنَّ هذا اللمس يمنحهم شيئًا من اللذة لا تُسبِّب لهم أي ضرر، بل إنها ضرورية للنمو والتطور الطبيعيَّين لجسم الطفل ونفسه وعقله.

ويلعب الأطفال من الجنسَين ما بين الخامسة والحادية عشرة ألعابًا بريئة لا ضرر منها، إحداها لعبة «الدكتور»؛ حيث يقوم أحد الأطفال بدور الطبيب ويَفحص جسم الطفل الآخر بكل وقار واهتمام واستطلاع كأيِّ طبيب، وفي بعض الأحيان يتبادَل الأطفال لمس أعضاء بعضهم البعض بطريقة مباشرة، وقد يُقلِّدون الاتصال الجنسي الذي يمارسه الكبار.

كل هذا لا يُحْدِث ضررًا للطفل وليس خطرًا على أيِّ طفل ذكرًا كان أو أنثى، لكن الضرر كله والخطر في ذلك التحذير والتخويف الذي ينالُه الطفل عن مثل هذه التصرُّفات الطبيعية.

أذكر أنني وأنا طفلة صغيرة كنت أشعر بالذُّعر وترتجف أصابعي رعبًا إذا ما لامست يدي بطريق الصدفة أعضائي الخارجية، وكنتُ أخاف أحيانًا من احتكاك ملابسي بهذه الأعضاء، وأظن أن مثل هذا الاحتكاك كفيلٌ بإحداث ضرر أو تلفٍ بالغ بها قد يُؤثِّر على حياتي كلها.

وكان هذا الخوف ينمو معي حتى بلغ قمَّته في اليوم الذي أدركت فيه أن هناك غشاءً ما رقيقًا، وأنه موجود في مكان ما قرب السطح بين ساقَيَّ، وأنني يجب ألا أقفز عاليًا من فوق السلم وإلا أتعرَّض للتمزُّق فتُصيبني أنا وجميع أفراد أسرتي كارثة بالغة.

وحينما تقدَّمتُ قليلًا من العمر تغير نوع الخوف الذي كان يجعلني أخشى القفز وأسير بخطوات بطيئة مريضة حَذِرة، وأصبحت أخاف من الغرباء وأخشى الخروج بمُفردي من البيت؛ فقد أدركت أن خطرًا ما يكمن لي في ذلك العالم الخارجي، وأنني يجب ألا أكلِّم الغرباء وبالذات الرجال منهم وإلا فسوف يحدث لي شرٌّ مُستطير.

واستطعت من حيث لا أدري أن أربط بين الرجال وبين ذلك الغشاء الرقيق القائم قرب السطح بين ساقي، وكنت كلما جلست بالصدفة بجوار رجل من غير أفراد أسرتي أضمُّ فخذيَّ بكل قوتي حتى لا يتسرب الهواء الذي يتنفسُّه الرجل ويتسلل بين ساقيَّ ويُصيبني بالضرر.

لا أدري كيف بلغ بي الخوف إلى ذلك الحدِّ لكني كنت سألت أمي ذات يوم بعد أن ولدت أختي الأصغر: كيف ولماذا تلدُ الأمهات؟ وردَّت عليَّ أمي يومها قائلة: إنَّ الأم تلد حين تتزوَّج، وسألتها بالطبع ككل الأطفال: ولماذا تلد الأم حين تتزوَّج؟ وردت عليَّ أمي قائلة: لأنها تعيش مع الأب وتأكل معه وتتنفَّس الهواء الذي يتنفَّسه، وتصورت بسرعة بعقل الأطفال أن الهواء هو الذي يتجمَّع في بطن الأم ويصنع ذلك الجنين الذي يجعل بطنها تكبر، لكنَّني تعجبتُ لهذه الفكرة ولم أصدقها فوجهتُ إلى أمي سؤالًا آخر قائلة: ولكن كيف يُمكن للهواء أن يصنع الطفل؟ وهنا لاحظت بوادر الغضب أو الضيق على وجه أمي وأبعدَتني عنها بيدها وهي تقول في ضجر: لا تكفِّين عن الأسئلة! اذهبي ورتبي السرائر!

ولا أظنُّ أن أحدًا يُمكن أن يتصور (باستثناء النساء) ما تشعر به مثل هذه الطفلة حين تَفتح عينيها ذات صباح فترى دمًا أحمر يسيل من بين فخذَيها، لا زلت أذكر لون وجهي في المرآة ذلك الصباح القاتم، كان لونه أبيض وأصبحت شفتاي بيضاوَين تشوبُهما زرقة،

وذراعاي ترتجفان وساقاي تَرتعِدان، وقد تصوَّرت أن الكارثة التي كنتُ أخشاها قد وقعت وأن رجلًا ما غريبًا اقتحم حجرة نومي بالليل وسبَّب لي هذا الضرر، وقد كنتُ أتصور ذلك من قبل كثيرًا وأتأكد قبل أن أنام من إحكام غلق النافذة التي تطلُّ على الشارع.

ومن الطريف أنني كنتُ قد تلقَّيت في المدرسة في اليوم السابق لهذا اليوم الكئيب درسًا في مرض البلهارسيا التي تُصيب الفلاحين حين ينزلُون بأرجلهم في القنوات المائية فتدخل البلهارسيا إلى أجسامهم وتُصيبهم بحرقان أثناء التبول ودم أحمر في البول.

ولهذا ظننتُ ضمنَ ما ظننت من أسباب لهذه الكارثة أنني أُصِبْتُ بمرض البلهارسيا اللعين، وكنت أعتقد في ذلك الوقت أن تلك الفتحة الصغيرة الكائنة بين فخذيَّ إنما هي فتحة البول فحسب.

وبسذاجة طفلة في العاشرة من عمرها تصوَّرتُ أن هذا المرض قد يُشْفَى وحده بعد لحظة وأخرى.

لكنه لم يتوقَّف، بل كان يزيد ساعة بعد ساعة، واضطررت في اليوم التالي أن أتغلب على الخوف والخزي اللذَين كنت أشعر بهما وذهبت إلى أمي وطلبت منها أن تأخذني إلى طبيب.

وعجبتُ في ذلك اليوم كيف بَدَتْ أمي باردة هادئة ولم يفزعها مرض بنتها الخطير، ثم بدأتُ أعرف منها الحقيقة حين قالت لي: إنَّ هذا المرض يُصيب كل البنات والنساء وأنه سيتكرَّر مرة كل شهر لبضعة أيام، وأنني في اليوم الأخير يجب أن أتطهَّر من هذا الدم الفاسد بالاستحمام الجيد.

ورنَّت تلك الكلمات في أذني: مرضٌ شهريٌّ! دم فاسد! لا بدَّ من التطهير بالاستحمام الجيد! وتصوَّرتُ بخيال الطفلة أن فساد هذا الدم معناه النجاسة، وأن النجاسة أمر مَعيب مُزرٍ، وأنني يجب أن أُخْفِي مظاهر ذلك المرض عن جميع الأعين، وبالذات عن أبي الذي كان يتصوَّرني فتاة مثالية ويُعْجَب بذكائي وتفوُّقي في المدرسة، ورجوت أمي أن تكتُم الأمر بيني وبينها.

ولزمتُ غرفتي أربعة أيام مُتتالية لا أملك الشجاعة على أنْ أُواجِه أبي وأخي أو حتى الخادم الصغير، وحينما أذهب إلى الحمَّام أتلفَّت حولي خشية أن يلمحني أحد، وقبل أن أخرج من الحمام أغسل بلاطه غسلًا جيدًا وكأنني أطمس أثر جريمة مشينة، ثم أغسل يدي وذراعي بالماء والصابون عشرات المرات لأزيل عني أي أثر لرائحة ذلك الدم الفاسد.

وبالإضافة إلى كل تلك المشاكل النفسية والجِسمية التي تتعرَّض لها البنت الصغيرة في مرحلة البلوغ بسبب الجهل والتجهيل بأعضائها ورغباتها فإنها تبدأ بدخولها سنِّ المراهَقة في التعرض لمزيد من المحظورات والقيود التي تُقابلها بطبيعة الحال بمزيد من الخوف والانكماش والكبت.

ومن المعروف أنَّ الرغبة الجنسية في البنين والبنات تزداد حدة عند البلوغ، وأن البلوغ يُصاحبه تغيُّرات عميقة في الإنسان بسبب التغير في التوازن بين مختلف الغدد الصماء وزيادة كبيرة في إفراز الغدد التناسُلية، ويُصاحب هذا التغيير الجسمي والفسيولوجي تغير عميق في نفس الإنسان وتفكيره ومشاعره.

ويقول علماء النفس: إن الإنسان في هذه الفترة بالذات يحتاج إلى أن تزول التحذيرات والضغوط من حوله ليأخذ فرصته في النمو والنضج والاستقلال بشخصيته عن الآخرين.

لكن الذي يحدث هو العكس؛ فإنَّ التحذيرات والضغوط تزداد من حول الإنسان في فترة البلوغ عنها في أيِّ فترة أخرى، ويتعرَّض الولد أيضًا للضغوط، ولكن بنسبة أقل كثيرًا من البنت، كما أن الضغوط التي يتعرَّض لها الولد تختلف عن الضغوط التي تتعرَّض لها البنت، وكذلك تختلف نظرة المجتمع إلى بلوغ كلٍّ منهما وإلى مظاهر هذا البلوغ.

ففي الوقت الذي يَعترف فيه المجتمع بالرغبة الجنسية عند الولد فإنه يُنكرها على البنت، وبهذا يُمكن القول: إنَّ بلوغ الولد إيجابي يُؤكِّد به غريزته ورغبته في الجنس الآخر، أما بلوغ البنت فمعناه نكران الجنس ونفْيُه، ويُصبح من الطبيعي أن يُغازل الولد البنت ويُصبح من الانحراف أن تتقبَّل البنت غزل الولد، ولا أقول أن تُغازله كما يغازلها.

وتشعر البنت بالفُروق الضخمة التي يضعها المجتمع بينها وبين أخيها الولد؛ أخوها يخرج ويلعب ويقفز يتشقلب، أما هي إذا ما جلست وانحسر الرداء عن سنتيمتر من فخذها فإن أمها ترشقها بنظرة مخلبية حادَّة لتُخفيَ عورتها، وتشعر البنت — وهي لم تتجاوَز العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها — أن كل شيء فيها عورة تَستوجِب التستُّر والإخفاء.

ومن الطبيعي أن تشعر البنت بعد كل ذلك بالعداء نحو جسمها وأعضائها التناسُلية والجنس، تربط بين كل هذه الأشياء والرجل فتَشعُر نحوه بالكراهية.

وقد تُقاوم البنت وتُصارع فترة أو فترات ضد المصير الذي يقودها إليه المجتمع بيد حديدية باردة.

ومِن مُذكِّرات طفلة في العاشرة من عمرها كتبتُ: «لم أكن أهرب إلى عالَمي الصغير وكتبي المصورة وأقلامي الملوَّنة حتى تُجرجرني مامي إلى المطبخ وهي تقول: مصيرك إلى

الزواج. يجب أن تتعلَّمي الطبخ، مصيرك إلى الزواج! الزواج! تلك الكلمة البغيضة التي كانت تُردِّدها أمي كل يوم حتى كرهتها، ولم أكن أسمعها حتى أتمثَّل أمامي رجلًا له بطن كبير في داخله مائدة طعام، ارتبطت في ذهني رائحة المطبخ برائحة الزوج، وكرهت اسم الزوج، وكرهت رائحة الأكل.»

التربية والكبت

إنَّ الإنسان مهما ورث من صفات فإن الصفات التي يكتسبها من البيئة المُحيطة به وعن طريق التربية هي التي تُكوِّن صفات شخصيته وشكلها النهائي؛ فالإنسان يعيش داخل مجتمع يتأثر به ويؤثر فيه، والحياة هي التفاعُل المستمر بين الإنسان ومجتمعه.

وبهذا يكون التبادُل أساس حياة الإنسان داخل المجتمع، من ولادته حتى موته، ويتميز الإنسان عن سائر الحيوانات بقُدرته على السيطرة على شعوره والاختيار، هذه القدرة تنمو في مراحل العمر المختلفة؛ فالطفل في أول مراحل عمره لا يَستطيع الاعتماد على نفسه، ثمَّ يتعلَّم كيف يَعتمد على نفسه؛ أي إنَّ الطفل يَفقِد بالتدريج سلبيته واحتياجه للآخرين ويكتسب الإيجابية والقدرة على الاختيار وحرية الفعل، وهذا هو معنى النمو.

والنمو لا يعني نمو الجسم فحسب؛ فكما ينمو جسم الطفل ينمو عقله وتنمو نفسه. إن النمو النفسي والعقلي هو حركة نحو مزيد من استقلال الشخصية والقدرة على الاختيار والحرية الشخصية والمسئولية، هذا النمو ضرورة وأساسي ليُحرِّر الإنسان من إرادات الغير ومحاكاتهم.

لكن المجتمع — بنُظُمِه وقوانينه ومُؤثِّراته وضغوطِه — يكبت المرأة فيعوق هذا الكبت نموها الفكري والنفسي، ويحُول دون تحرُّرها من السلبية والاعتماد على الآخرين، وتظلُّ كالطفل في مراحله الأولى من النمو عاجزًا عن الاستقلال والإيجابية وحرية الفعل، لكنَّها تختلف عن الطفل في أن جسمها لا يكون طفلًا صغيرًا وإنما يكون قد أصبح جسدًا كبيرًا ناضجًا.

ولعلَّ هذا هو السبب في أننا نرى نساءً كبيرات ناضجات في أجسامهن، أما نفوسهن وعقولهن فلا تزال في مرحلة مُتخلِّفة من مراحل النمو، وهذا التخلُّف هو أهم سبب وراء معظم الانحرافات والمشاكل الاجتماعية أو النفسية أو الجنسية.

إنَّ عدم النضج هو السبب الرئيسي وراء معظم هذه المشاكل، عدم نضج المرأة وكذلك عدم نضج الرجل؛ فالرجل وإن كان أكثر حظًّا من المرأة في الحرية وفي فُرَص النضج إلا أنه يتعرَّض أيضًا لضغوط اجتماعية تُعرقل نضجه النفسي والعقلي، كما أنَّ التفرقة الكبيرة بين الرجل والمرأة في المجتمع والضغوط الشديدة على المرأة تزيد من إحساس الرجل بإيجابيته؛ فإذا بها تتحوَّل إلى مبالغة في السيطرة وميل إلى الأنانية والسادية (الغربة في الإيلام)، وتَزيد أيضًا من إحساس المرأة بسلبيتها لتصبح مبالغة في الخضوع والماسوشية (الرغبة في استشعار الألم).

إنَّ سلبية المرأة ليست صفة طبيعية في المرأة، ولكنها صفة غير طبيعية نتجت عن ضغوط المجتمع وكبته لنموِّها، وكذلك أيضًا جميع الصفات الأخرى التي ألصقها المجتمع بالمرأة والأنوثة وكلها صفات غير طبيعية دخيلة على طبيعة المرأة السوية.

فالبنت تُولَد طبيعية ثم تتعلَّم لحظة ولادتها كيف تُصبح أنثى، وكذلك الولد يتعلم كيف يصبح ذكرًا، وكما قالت «مرجريت ميد»: إن الفتاة تتعلَّم أن تجلس وتضم ساقيها وتحافظ على بكارتها وتَخجل من جسمها، ثم تنتظر دورها السلبي في الحياة كامرأة، أما الولد فيُحرِّك ساقيه بحرية ويفخر بجسده ويدخل إلى عالم الرجال بإيجابية، ولو أنَّ البنت تلقَّت التربية التي يتلقاها الولد لَمَا كانت هناك تلك الفروق بين الرجل وبين المرأة أو بين الرجولة والأنوثة.

وقالت سيمون دي بوفوار: إن صفات الأنوثة نتاج صناعي لوضع المرأة السُّفلي في المجتمع، وكتب كينيث ووكر في كتابه الجنس والمجتمع: إنَّ إحساس الذكر بذكورته والأنثى بأنوثتها، ومعنى هذا الإحساس، وفرص إشباع الرغبة الجنسية، والظروف التي يحدث فيها هذا الإشباع، كل هذا يَخضع للمجتمع من حولهما وما فيه من تقاليد وضغوط في البيت أو في المدرسة أكثر مما يَخضع لصفاتهما الموروثة من أبيهما وأمهما.

وقد أهمل علماء النفس التقليديُّون — وعلى رأسهم فرويد — المجتمع وأثره في تشكيل حياة الإنسان الجنسية، وكانوا يهتمُّون بداخل الإنسان أكثر من اهتمامهم بالبيئة الخارجية؛ ولهذا فقدوا الكثير، وثبت قصور نظرية فرويد التي تقول بأنَّ الذي يحكم سلوكنا الواعي إنما هي دوافع العقل الباطن؛ فقد اتَّضح أن كل تغيُّر في شكل أو مضمون وعينا إنما هو ردُّ فعل أو تفاعل لتغير في البيئة من حولنا، وأنَّ الصراعات التي يعاني منها الطفل والتي أرجعها فرويد إلى الإحباط الجنسي والغيرة ليسَت إلا نتاجًا لتفاعُل الإنسان مع القوى والضغوط الاجتماعية التي تُفْرَض عليه.

وقد أخطأ فرويد وأتباعه في فهمهم لنفس المرأة وأحاسيسها ورغباتها، ويرجع هذا الخطأ لأنهم لم يستطيعوا إدراك القوى الاجتماعية والضغوط وأثرها في نفس المرأة، ولأنهم أيضًا كانوا رجالًا ولم يكونوا نساءً.

وتُواجِه البنت منذ طفولتها تناقض المجتمع؛ ففي الوقت الذي تُحَذَّر فيه من الرجال وتُخَوَّف من الجنس وتُفْرَض عليها العفة فهي تشجَّع على أن تكون أداة جنس، وتُعلَّم كيف تكون جسدًا فقط، وكيف تُجمِّل هذا الجسد وتُزينه لتجذب الرجل.

ويَنعكِس هذا التناقُض على شخصية المرأة بتناقُض آخر؛ فهي تُريد الرجل ولا تُريده، وهي تقول لا وتعني بها نعم، ويظنُّ المجتمع أن هذه هي طبيعة المرأة وينسى أنه هو الذي فرض عليها هذا التناقض.

وتسبِّب التربية التي تتلقاها البنت سواء في البيت أو المجتمع كثيرًا من المشاكل والعُقَد النفسية ... فالبنت تتدرَّب منذ الصغر على أن تنشغل بجسمها وملابسها وزينتها طول الوقت، ولا تجد وقتًا أو اهتمامًا لتقرأ أو تُنمي قدراتها العقلية والنفسية، وتتحمَّل الفتاة متاعب التجميل وآلامه وتتدرَّب على أن تُخفي طبيعتها وحقيقتها.

وكم تُصاب البنات بالقلق والأمراض النفسية المُختلفة بسبب حرصهنَّ الشديد على استيفاء مقاييس الجمال الموضوعة، وتشعر البنت أن مُستقبلها في الحياة يَتحدَّد حسب طول أنفها واتساع عينيها وامتلاء شفتيها، وحينما تجد البنت أن أنفها أطول أو أقصر من اللازم فإنها قد تعيش في قلق دائم، وقد تشعُر بالخجل من أنفها وتُحاول أن تخفيه بيدها من حين لآخر بحركة لا إرادية، وقد تتصوَّر الفتاة خطأً أنها يجب أن تُخفي رائحة جسمها الطبيعية أو أن هذه الرائحة ليست عطرة كما يجب، فإذا بها تُبلِّل نفسها بالعطر عدة مرات كل يوم، وهناك من ترى أن أسنانها بارزة أو أكبر مما يجب فتمنَع نفسها من الابتسام أو الضحك، وإذا حدث وضحكت فهي تزمُّ شفتَيها أو تضع يدها على فمها.

ولا يُمكن لأحد أن يتصوَّر كم تشتغل البنات بتوافِه الأمور، وكم تُصبح بعض ملِّيمترات تنقصها الرموش عن طولها المعتاد مشكلةً حادَّة في حياة فتاة من الفتيات، كم من فتاة تُرعبها بضع قطرات مطر؛ لأنها تُفسد مشيتَها وقوامها الطبيعي بالتأرجُح على كعب عالٍ رفيع، وكم من امرأة لا تستطيع أن تواجه الناس بغير أن تضع على وجهها المساحيق والظلال والخطوط.

وهناك من الفتيات بطبيعة الحال مَنْ ينجو من مثل هذا القلق والمشاكل النفسية لمطابقة مقاييس الجمال عليهن، لكنهنَّ يَعِشن أسيرات لهذا المفهوم الضيق للجمال، أسيرات

لفكرة أن مُستقبلهنَّ هو الرجل والزواج، هذا في الوقت الذي يُعَد فيه إخوانهن الذكور للعمل في الحياة العامة والمشاركة في بناء المجتمع.

وتُقلِّل هذه التربية من طموح البنت وتعتقد أن سنوات الدراسة أو العمل بعد التخرج ليست إلا فترة انتظار تنتهي بالعثور على الزوج.

وينتج عن هذه التربية أن يُصبِح الزوج هو كل حياة المرأة، أما الزوجة فليست إلا جزءًا من حياة الرجل، وحيث إن المرأة تربَّت منذ طفولتها على أن تُنكِر الجنس وتكبت رغباته فهي تعجز بطبيعة الحال عن أداء دورها الجنسي المفروض مع الزوج وتُتَّهم بالبرود، ويُصبح من حق زوجها أن يُطلِّقها، أو أن يبقيها خادمة بالبيت ويَنطلِق هو مبيحًا لنفسه كل مَنْ يستطيع من النساء.

إنَّ الطبيعة لم تُفرِّق بين الرجل والمرأة؛ فلكلٍّ منهما رغبة جنسية وطاقة لا بدَّ أن تُصْرَف في اتجاهها الصحيح، ومن خصائص الطاقة أنها تُولد ثم تُصْرَف ثم تولد ثم تُصْرَف وهكذا تستمر الطاقة أو القوة التي تُحرِّك الإنسان طالما هو يعيش.

وإذا ما تَعرَّض الإنسان في حياته لقوى خارجية تكبت هذه الطاقة فإنها لا تُفْقَد أو تُكْبَت بمعنى الكبت، ولكنها تَنحرِف وتُصْرَف في اتجاه آخر غير اتجاهها السليم؛ ولهذا تنحرف طاقة المرأة الجنسية بسبب ضغوط المجتمع، وتُسبِّب للنساء الكثير من الأمراض النفسية والعصبية، وما هذه الآلام الشديدة التي تُصاب بها النساء أثناء الطمث أو الولادة إلا بسبب انحراف هذه الطاقة عن مسارها الطبيعي لتحطم نفس المرأة.

إنَّ نفسية المرأة تُصبح مشوَّهة ومريضة بسبب أثر الطاقة المحطم على نفسها، ومنذ الولادة حتى الشيخوخة تنحرف طاقة المرأة الجنسية، وتتعلَّم البنت منذ طفولتها أن تنكر الجنس وتقتل رغبة البحث والاستطلاع عندها سواء في علاقاتها الجنسية أو علاقاتها غير الجنسية، فإذا ما جاء الوقت الذي يجب أن تحسَّ فيه الجنس عجزت؛ لأن القالب الذي وُضِعَت فيه أصبح من القوة بحيث إنه تغلَّب على رغبتها الطبيعية واستطلاعها.

ويُريد المجتمع بضغوطه على المرأة أن تصبح بغير رغبات جنسية أو بغير جنس، ويأتي علماء النفس ليضعوا النظريات التي تفسر ما يقع في المجتمع وتُبرِّره، فإذا بفرويد يقول: إن الأنثى ذَكَر بغير عضو تناسل، أو إن الأنوثة هي ذكورة بغير رغبة جنسية أو بغير «الليبدو».

ويأتي علماء الأخلاق والقانون ليضعوا القيم والقوانين التي تفرض على المرأة سلوكًا يتفق مع نظرة المجتمع إليها والدور الذي وُضِعَ لها.

أما أطباء النفس فيقومون بدورهم الفعال في تنفيذ قيَم المجتمع وتحطيم البقية الباقية من شخصية المرأة باسم التكيُّف الاجتماعي.

إنَّ التربية التي يتلقَّاها الطفل في مراحل عمره المختلفة تُعرقل نموه الطبيعي؛ فالطفل لا يُتْرَك لحظة ليُواجه نفسه بنفسه أو يتخذ قرارًا مستقلًّا عن إرادة الكبار الذين يُربونه، وكما قال «دافيد كوير»: إنَّ التربية الحديثة تمنح الطفل الأدب والطاعة وتُفقده نفسه وشخصيته. وعبَّر «كينيث ووكر» عن نفس هذا المعنى حين قال: «إننا نتعلَّم من المهد إلى اللحد أن نستبدل قيمة أنفسنا بالقبول الاجتماعي وتكامل شخصياتنا وأرواحنا بالتكيُّف الأخلاقي.» وهكذا فإن ثمن الحصول على الأمن هو فقدان النفس، وكم يكون هذا الثمن باهظًا؛ لأنه ثمن الحياة ذاتها.

والتربية التي يتلقَّاها الطفل في مجتمعنا الحديث هي سلسلة متَّصلة من الممنوعات والعيب والحرام والذي لا يصح، ويكبت الطفل رغباته ويُفرغ نفسه من نفسه ويملؤها برغبات الغير، ويتضح من ذلك أن هذه التربية عملية قتل بطيئة لروح الإنسان، ولا يبقى من الإنسان بعد ذلك إلا غلافه الجسدي الخارجي جامدًا فاقدًا للحياة كالزنبرك يُحرِّكه الآخرون.

ولا شكَّ أن نصيب البنت من هذه التربية أكبر بكثير من نصيب الولد، وأن نصيبها من الكبت أضعاف نصيبه، ولهذا فإنَّ انسحاق نفسها وروحها أشد وأفدح.

ففي الوقت الذي يُسْمَح فيه للولد بالخروج إلى الشارع ومخالطة أصدقائه تُعْزَل البنت في البيت بفكرة حمايتها من خطر العالم الخارجي، وتشعر البنت بالخوف من الغرباء وتُحسُّ أنها قد تكون فريسة في أي وقت، وتَنكمِش داخل البيت حيث الأمان، وهي لا تدري أن هذا الأمان إنما هو الخطر بعينه؛ لأنه يعزلها عن المجتمع ويجتثُّ جذورها يومًا بعد يوم من الحياة وخبراتها فتموت وهي على قيد الحياة.

وهناك بعض الفتيات أو الكثيرات منهنَّ يُصارعن ضد هذا القتل البطيء.

وقد كنتُ في طفولتي إحدى هؤلاء البنات اللائي يُصارعن ويقاومن، كنت أرفض الخدمة بالبيت والمساعدة في المطبخ وأُصرُّ على الذهاب إلى المدرسة، كنت أرفض أن يصبح شعري طويلًا مقيدًا في ضفائر وأشرطة، لم أكن أفهم لماذا تهتمُّ أمي بملابسي وفساتيني وتشتري لي منها الكثير في الوقت الذي ترفض أن تشتري لي كتابًا أقرؤه، كنتُ أتفوق دائمًا في الدراسة عن أخي فلا يُهنئني أحد ولا يغتبط أحد، وحينما أفشل مرةً واحدة في إتقان الطبخ يُؤنبني الجميع.

وتَختلِف البنات في صراعهن ضد الفروق المُفتعَلة بينهنَّ وبين البنين باختلاف ظروفهن وشخصياتهن، هناك بنت تُصارع حتى مرحلة البلوغ فإذا بحادثِ الطمث المفاجئ والذي لم تُعَدَّ له يُصيبها بالضربة القاضية فتستسلم لمصيرها، وتعتقد أن الطبيعة هي التي حكمت عليها بهذا العقاب كما تسمع من حولها، وبنتٌ أخرى أكثر طموحًا وثقةً بنفسها تصرُّ على مُواصَلة الصراع إلى الحد الذي تنكر فيه جسدها وتُلغي رغباته وتنشد التفوق في الحياة متحدية الرجال، ومن النادر أن نجد تلك البنت التي تستطيع أن تعيش حياتها الطبيعية كجسم وعقل ونفس، وأن تُمارس رغبات جسمها ونفسها وعقلها دون أن يَضطرَّها المُجتمَع إلى إلغاء أحدها على حساب الآخر.

إنَّ المجتمع لا يستطيع أن يَعترف أن المرأة يمكن أن تتفوَّق وتنبغ دون أن تتحول إلى رجل؛ فالتفوق والنبوغ في نظر المجتمع صفة الرجل فحسب، فإذا ما أثبتت امرأة ما نبوغها بما لا يدع مجالًا للشك اعترف المجتمع بنبوغها وسحب منها شخصيتها كامرأة وضمها إلى جنس الرجال.

وكم طاردتني كلمة «رجل» كلما تفوقت في دراستي أو عملي، إذا حافظتُ على كلمتي ووفيت وعدي قالوا: «رجل»؛ كأنَّما المرأة ليست لها كلمة وليس من المفروض أن تفيَ بوعدها، إذا سِرْتُ بخطوات سريعة وحذاء منخفض قالوا: «رجل»، وكأن المرأة لا بدَّ أن تمشي ببطء وكسل وتراخٍ وتتأرجح على كعب عال، إذا مارست الرياضة واكتسبتْ عضلات جسمي قوة قالوا: «رجل» وكأن المرأة لا بد أن تكون ضعيفة العضلات هزيلة الجسم، تسقطها على الأرض نفخة رجل وتَنكسِر عظامها تحت قبضته القوية.

وهذا المفهوم الأخير يكشف عن العلاقة السادية الماسوشية التي تُلوِّن معظم علاقات الرجال بالنساء؛ فالرجل هو السادي الذي يَقتحِم ويغتصب ويكسر، والمرأة هي الماسوشية التي يقع عليها الاقتحام والاغتصاب والتكسير، الرجل هو الفاعل دائمًا والمرأة هي المفعول به، الرجل هو الإيجابي والمرأة هي السَّلبية.

المجتمع يفرض على المرأة أن تكون السلبية وأن تكون ماسوشية، ثم يُسمي السلبية والماسوشية طبيعة المرأة، ويأتي فرويد ليؤكد هذا المفهوم علميًّا ويُعرِّف الرجولة بالسادية والأنوثة بالماسوشية.

حينما بلغتُ السادسة عشرة من عمري وجدتُ نفسي في مدرسة داخلية، عرفت أن أهلي يخشون عليَّ من ركوب المواصلات العامة والاختلاط بالبنين أو التعرض لمعاكساتهم أو

إغراءاتهم، وكنت قد فهمت بحكم التربية وقراءة كتب المطالعة والأخلاق وكل ما حولي من تعليقات ونظرات وتصرُّفات أن الاتصال بالشبان أكبر عيب وأكبر خطر يمكن أن يطيح بمستقبلي وسمعتي كفتاة على خلق.

لكني كنتُ أحسُّ أن داخلي طاقة ضخمة تجذبني نحو الجنس الآخر، وكنت أسمع الأغاني الملتهبة بالغرام كل يوم في الراديو ونداءات وتأوُّهات المطربة وهي تنادي على حبيبها فيزيد تأجُّجي.

وكنت أشعر بالذنب وتأنيب الضمير يُراودني وأنا نائمة أحلم وأجد نفسي بين ذراعَي رجل مجهول، وكان يزيد من شعوري بالذنب أنني كنت أجد في ذلك متعة شديدة.

ولم أكن أفهم نفسي تمامًا، كنتُ متناقضة جدًّا في تصرفاتي؛ ففي الوقت الذي ألتهب فيه من الأعماق يبدو مظهري باردًا جامدًا، لم أكن أتظاهر بالبرود، كنت في حقيقة الأمر لا أحب الشبان، بل كنت أكرههم، أما هذا الشاب المجهول الذي كان يأتيني في الأحلام فقد كان مختلفًا، لم أكن أعرف وجه الخلاف؛ فقد كان يُشبههم تمامًا، لكني كنت أعتقد أنه رجل آخر غير كل الرجال، وأنه الوحيد الذي خُلِقَ لي، وقد ضيعتُ من عمري سنين كثيرة أبحث عن هذا الرجل، ثم اكتشفت بعد فوات الأوان أنه شخص وهمي لا وجود له، وأنني أنا التي صنعتُه بخيالي الرومانتيكي، وأنَّ الرجل الحقيقي الطبيعي أفضل منه بكثير.

إنَّ الرومانتيكية مرض يُصيب البنات بسبب ذلك التناقُض الحاد الذي يعشن فيه، وبسبب ذلك الكبت الذي يُفْرَض على غرائزهن في الوقت الذي يطفح المجتمع بالأغاني الرومانتيكية المريضة والفن والأدب الرومانتيكي السقيم الذي ساد ولا يَزال يسود في قرننا العشرين.

إنَّ أكبر مظهر من مظاهر مرض الرومانتيكية هي أن الفتاة تفصل بين جسد الرجل والرجل ذاته، إنه نوع من الشيزوفرينيا أو الانفصام تُلحقه الفتاة بالرجل لتَهرُب من الشعور بالإثم؛ فهي — بحكم التربية والتقاليد السائدة — تربط بين الإثم والاتصال بجسد الرجل، ويكون الرجل الوحيد الذي يُناسب كبتها هو أن تُطلق العنان لخيالها وتصنع رجلًا وهميًّا.

وحينما تكبر الفتاة تُصاب بخيبة أمل كبيرة؛ إذ تجد الحقيقة دائمًا أقل من الخيال، ويصدمها أن تجد للرجل جسدًا وعضو تناسُل ولحمًا ودمًا، وأنه يبصق ويدخل دورة المياه ويبول كسائر البشر العاديين، ولا تُصيبها قُبلة الرجل الحقيقية بتلك الرعشة التي كانت تحدث لها مع فارس الأحلام، ويُمكننا أن نتصوَّر مدى التعاسة التي تعيشها الفتاة في

أول حياتها الزوجية وقد تُصيبها خيبة الأمل هذه بالبرود الدائم، وقد تستطيع إذا حظيت برجل ناضِج واعٍ (وهذا نادر جدًّا) أن تُشْفَى من مرض الرومانتيكية، وأن تبدأ تَستمتِع بحياتها الطبيعية بعد سنوات طويلة.

وقد كتبت جيرمان جرير تصف هذه الحالة في كتابها «إخصاء الأنثى» قالت: «وكمُعظَم البنات كنت أحلُمُ بفارس الأحلام الذي سيَحملني على جواده الأبيض، ويُوقظني بتلك القُبلة السحرية التي قرأت عنها في روايات الأدب الشهيرة، ولكن حينما جربت أول قُبلة والثانية وغيرهما من بعد ولم أحصل على النتائج التي كنتُ أتوقَّعها شعرت بخيبة أمل كبيرة، وإنه لم يكن إلا بعد سنوات وبعد أن خبرت الوصول إلى قمة اللذة في الجنس (الأورجازم) حين عرفتُ فجأة معنى تلك القبلة السحرية التي قرأت عنها.»

إنَّ الطاقة الجنسية في الإنسان — رجلًا كان أو امرأة — طاقة ضخمة جبارة، وليس هناك من تعبير عن نقص الإنسان ورغبته في الكمال أبلغ من الرغبة الجنسية، الجو الجنسي يَنشأ عن رغبة الجسم والعقل والنفس في البحث عن شيء يُلبي احتياجاتها جميعًا، هذه الغريزة القوية قادِرة على تحريك كل مَلَكَات الإنسان في الخيال والابتكار، وكما قال نيتشه: إنَّ الطاقة الجنسية في الإنسان تمتد بطبيعتها إلى أعلى قمة في نفس الإنسان وروحه وكيانه.

وحيث إنَّ الطاقة إذا كُبِتَت لا تضيع أو تُفْقَد، وإنما تنحرف عن مسارها الطبيعي إلى مسار آخر؛ لهذا تنحرف الطاقة الجنسية المكبوتة عند البنات إلى طريق آخر غير الرجل.

وقد بدأ كثير من العلماء أخيرًا الاعتراف بخطأ إحصاءات كينزي التي كانت تقول: إن ٩٣٪ من البنين يُمارسون العادة السرية، وإن ٦٢٪ فقط من البنات يُمارسنها مرة واحدة على الأقل، كذلك اتضح خطأ الكثير من المفاهيم العلمية التي كانت سائدة عن العادة السرية سواء في الذكور أو الإناث. إن كل إنسان ذكرًا كان أو أنثى يمرُّ بمرحلة من مراحل عمره حين يجد لذة طبيعية وصحية حين يُمسك أعضاءه التناسلية ويُداعبها حتى يَصل إلى قمَّة اللذة، وهكذا يُمكن القول بأن غالبية البنين والبنات يُمارسون العادة السرية في فترة من فترات حياتهم، ثم يَكفُّون عنها بانتقالهم إلى مرحلة أكثر نضجًا، ويبحثون عن هذه اللذة التي خبروها مع الجنس الآخر.

وبعض علماء النفس يَعتقدُون أن ممارسة البنت أو الولد للعادة السرية في هذه الفترة المحدودة عمل صحي للنُّضج واكتشاف لذة الجنس وخبرتها؛ فقد اتَّضح لهم أن المعلومات النظرية عن اللذة الجنسية تختلف عن التطبيق.

وفي مقابلة لي مع الدكتور ميسجيلب — وهو أستاذ بكلية طب برلين ورئيس تحرير مجلة «صحتك» في ألمانيا الشرقية ومسئول عن الرد على بريد القراء والقارئات بالمجلة — قال لي: حينما ترسل إليَّ فتاةٌ رسالة تقول فيها إنها تُمارس العادة السرية وإنها تشعر بالذنب والخوف، أرد عليها بأنه لا داعي على الإطلاق للشعور بالذنب أو الخوف، بل بالعكس إنَّ ممارسة العادة السرية لفترة محدودة يفيد الفتاة ويجعلها تنضج بسرعة وتُدرك معنى اللذة الجنسية، ولا تجد صعوبة في الوصول إلى قمَّة اللذة مع الرجل الذي تختاره، وقال أيضًا: إن من أسباب عجز أغلب النساء عن الوصول إلى قمَّة اللذة مع رجالهن هو أن هؤلاء النساء لم يمررن بجميع مراحل النضج الجنسي، وإحدى هذه المراحل هي مرحلة العادة السرية؛ وذلك بسبب ما أحيطت به هذه العادة من معلومات خاطئة ومفاهيم مُشوَّهة دفعت الكثيرين من البنات (والبنين أيضًا) إلى الإحجام عنها، ويَكفي أنها سُمِّيَت باسم العادة السرِّية لتُصبح ضمن الانحرافات والأمراض الجنسية. إنَّ هذه المرحلة تصبح صحية في فترة المراهقة حين لا يُصاحبها إحساس بالذنب أو الخوف؛ لأنها تساعد البنت أو الولد على اكتشاف لذة الجنس وإضعاف التوتر الجنسي.

على أن ذلك لا يعني — كما يقول الدكتور مسيجيلب — أن تُفْرِطَ البنت في ممارسة هذه العادة؛ لأنَّ هذا الإفراط له جوانب سلبية كثيرة؛ أحدها أن الفتاة لا تَنتقِل بسرعة إلى مرحلة النضج التالية لتُمارس الجنس مع الرجل، كما أنها حين تَنتقِل إلى هذه المرحلة (ويكون ذلك متأخِّرًا) تشعر بأن علاقتها بالرجل لا ترضيها بالقدر الذي تعوَّدته من خلال العادة السرية، ولا شكَّ أن المجتمعات التي تفرض الضغوط على الفتاة وتحُول بينها وبين الرجل تُشجِّع بناتها على الإفراط في العادة السرية؛ وبالتالي يُحْرَمْن من النضج الطبيعي وتُصاب معظمهن من بعد في حياتهن الزوجية بالبرود أو العجز الجنسي.

اكتشفت حين عدت إلى قراءة بعض مُذكراتي القديمة التي كتبتها وأنا تلميذة بمدرسة حلوان الثانوية الداخلية أنني طوال الخمس سنوات من عمري في هذه المدرسة كنت أعيش حبًّا ضخمًا جارفًا مَلَكَ عليَّ كل مشاعري، ولم يكن الحبيب سوى «مس سنية» مدرِّسة اللغة الإنكليزية، كنت أبكي بكاءً مرًّا طول الليل إذا ما قابلتْني في الفناء ولم تَبتسِم لي أو تَقُل لي: صباح الخير، وكنت أقفز في الهواء فرحًا حتى يَصطدِم رأسي بالسقف أو يكاد إذا ما جاملتني مرة أثناء الحصة وجعلتني أول من يقرأ الدرس، وفي إحدى الليالي سهرت حتى الفجر أكتب لها رسالة عتاب طويلة؛ لأني تغيَّبتُ عن الحصة يومًا فلم تسأل عن سبب غيابي.

ولم أكن أنا البنت الوحيدة التي تحبُّ مُدرِّستَها، كانت بنات الفصل جميعًا قد وقعن في حب المدرسات كل حسب ذوقها واختيارها، وكم من مشاجرات حدثت بين البنات بسبب التنافس على حب مُدرِّسة واحدة.

ويقول علماء النفس: إن مثل هذا الانجذاب والتعلق الذي يحدث بين أفراد الجنس الواحد سواء بين البنين والبنات طبيعي في مرحلة من مراحل نمو الإنسان ونُضجِه الجنسي وأنه لا يعدُّ شذوذًا جنسيًّا.

ولكن الشذوذ هو أن يظلَّ الإنسان في هذه المرحلة ولا ينتقل إلى المرحلة التالية من النضج، حيث يَنجذِب إلى الجنس الآخر ويجد معه المُتعة التي ينشدها.

لكن ضغوط المجتمع وتحريمه اتِّصال الفتاة بالجنس الآخر يُشجعها على أن تتجمَّد مشاعرها عند هذه المرحلة، وتُصبِح علاقتها ببنات جنسها ليست تلك العلاقة العاطفية المؤقَّتة، وإنما علاقة عضوية جنسية تستبدل بها الرجل بالمرأة وتشعر بلذة الجنس مع النساء فحسب.

ولأن المرأة أكثر تعرضًا لضغوط المجتمع من الرجل؛ فهي أكثر تعرضًا للإصابة بالشذوذ الجنسي، ولكن الإحصاءات والبحوث العِلمية لم تُثبت ذلك؛ لأنَّ معظم هذه البحوث تكرَّس لخدمة الرجل ودراسة الانحرافات أو العجز الذي يُمكن أن يحدث له، أما المرأة فقلَّما يتحمَّس العلماء لدراسة أسباب الانحرافات أو العجز أو البرود الجنسي الذي تتعرَّض له كثيرًا.

والسبب في ذلك واضح؛ فإن أهمية المرأة في نظر المجتمع ترتكز على إنجابها للأطفال، وحيث إنَّ برود المرأة الجنسي لا يحُول دون إنجابها للأطفال فإنَّ المجتمع لا يهتمُّ ببرودها ويقابله ببرود أشد.

الإنجاب هو كل ما يهمُّ المجتمع؛ لأثرِه المباشر على مصلحة المجتمع الاقتصادية، وأوضح دليل على ذلك هو ما يحدث في حالتَي تحديد النسل أو إطلاقه بدون تحديد، فحينما يعاني المجتمع من نقص في السكان؛ وبالتالي في الأيدي العاملة اللازمة للإنتاج فإنه يُكرِّس مجهوده لاكتشاف وسائل زيادة الإخصاب وعلاج أسباب العُقم عند النساء، فإذا ما زادت الأيدي العاملة عن حاجة الإنتاج وهدَّد المجتمع اقتصاديًّا زيادة السكان فإنه يكرس جهوده لاكتشاف وسائل لمنع الحمل وتعقيم النساء.

أما أن معظم النساء لا يشعرن في حياتهن الزوجية الطويلة باللذة الجنسية الكاملة فهذا لا يهمُّ المجتمع في شيء.

وقد استردَّت المرأة بعض حقوقها في البلاد المتقدِّمة؛ ولهذا أصبحت البحوث في السنوات الأخيرة تتجه لدراسة أسباب البرود الجنسي عند المرأة أو الشذوذ الجنسي أو غيرهما من الانحرافات التي تَتعرَّض لهما المرأة، ولعل هذا يفسر لنا سبب ازدياد حالات الشذوذ الجنسي بين النساء؛ إذ الحقيقة أن هذه الزيادة ليست بسبب الحرية التي نالتها المرأة، ولكنَّها بسبب ازدياد البحوث التي تهتمُّ بالنساء؛ فالحرية التي تستردُّها المرأة شيئًا فشيئًا لا شكَّ تساهم في علاج الكبت الذي تعاني منه المرأة، وتعالج معه كل أنواع الأمراض والانحرافات ومنها الشذوذ الجنسي.

وقد كان العلماء في بحوثهم عن أسباب الشذوذ الجنسي عند الرجال يُهملون المجتمع وضغوطه وينشغلون بالأسباب البيولوجية للشذوذ، ولعلَّ آخر اكتشافاتهم في هذا المضمار هو أن انخفاض نسبة هرمون الذكورة في الدم (بسبب كسل ما في خلايا «لايدرك» الموجودة بالخصية) يؤثر على مركز في المخ مسئول عن العلاقات الجنسية، فيُصبح الرجل أكثر ميلًا للرجال.

وحيث إنه لا يوجد شيء في الإنسان يُمكِن تفسيره بيولوجيًّا فحسب؛ لذلك فإن الفصل في أي بحث بين الأمور الاجتماعية تَنتهي به إلى أن يكون بحثًا فرديًّا، والأفضل للعلماء اقتصادًا للجهد والوقت والمال أن يبحثوا داخل المجتمع عن أسباب الشذوذ أكثر من بحثهم داخل خلايا الإنسان، فالجنس ليس وظيفة لا إرادية مستقلَّة بذاتها عن البيئة من حولها، والشذوذ الجنسي كالضعف الجنسي ظاهرة من ظواهر توقُّف نمو الشخصية بسبب ضغوط المجتمع.

وقد أثبتت أبحاث وتقارير أزوالد شوارز أن حالات الشذوذ الجنسي بين الذكور غير موجودة تقريبًا في المدارس المُختلطة التي تجمع بين الجنسين، كما اتَّضح أيضًا زيادة حالات الشذوذ داخل السجون والمُعتقَلات وبين الجنود وفي المدارس الداخلية وغير ذلك من الظروف التي يُفْصَل فيها بين الرجال والنساء.

وهذا شيء طبيعي لا غرابة فيه؛ فالطاقة الجنسية عند الإنسان قوية، لا تُفْقَد ولا تضيع، ولا بدَّ لها من طريق تُصْرَف منه لتعود وتولد من جديد، فإذا وجدت الطريق الطبيعي مسدودًا انحرفت إلى طريق آخر، إذا لم يجد الإنسان الجنس الآخر اتجه إلى نفس الجنس، وإذا لم يجد نفس الجنس في حالة الانعزال عن الناس استعاض بنفسه عن الآخرين ومارس العادة السرية، وفي حالات الحرمان القُصوى قد يلجأ الإنسان إلى الحيوانات وبالذات في الريف حين يسكن الحيوان مع الإنسان بيتًا واحدًا، وفي حالة الأرامل العجائز حين لا تجد المرأة إلا كلبها العزيز الوفي.

إنَّ الإنسان مهما ورث من صفات فإن الصفات التي يكتسبها من البيئة المحيطة به وعن طريق التربية هي التي تُكوِّن صفات شخصيته وشكلها النهائي؛ ولهذا لا بدَّ لنا أن نُدرك أهمية التربية الصحيحة منذ الصغر، وقد أثبت علم الوراثة الحديث أن الصفات المكتسبة عن طريق التربية تورث من جيل إلى جيل، وأن الإنسان — عن طريق التربية الصحيحة منذ الصغر — يُمكن أن يكتسب صفات جميلة نفسية وجسمية واجتماعية وأن يُورثها لأطفاله، وكما قال عالم الوراثة الروسي ميتشورين: إننا يُمكننا التدخل في تحسين نوع الإنسان وموروثاته ونصنع أجيالًا أفضل دائمًا، فلا ينبغي لنا أن نَنتظر الحسنات من الطبيعة، بل علينا أن ننتزعها انتزاعًا وندفع الإنسان إلى التغير إلى الأفضل.

الطبيعة بريئة

يختلط على كثير من الناس الأسباب التي من أجلها يضع المجتمع المرأة في مرتبة أقل من الرجل، ويفرض عليها قيودًا وضغوطًا لا يفرضها على الرجل، ويُحدِّد لها دورًا معينًا في الحياة يرتكز أساسًا على الخدمة بالبيت ورعاية الأطفال.

وقليل جدًّا من الناس مَنْ يدرك الأسباب الحقيقية وراء تلك الفروق الضخمة التي يضعها المجتمع بين الرجل والمرأة، ويدَّعي أن الطبيعة هي التي وضعتها.

لكن الحقائق العِلمية تُثبت أن هذه الفروق بين الرجل والمرأة فروق صناعية من صنع المجتمع، بدليل أنها تَتغيَّر من مجتمع إلى مجتمع ومن عهد إلى عهد ومن نظام إلى نظام، ثم إن علوم الطب والتشريح والفسيولوجيا والبيولوجي تُثبت أن الإنسان المُزدوج الجنس «بايسيكسوال»، وأنه ليس هناك مَنْ هو ذكر ١٠٠٪ أو من هي أنثى ١٠٠٪، وكل رجل داخله امرأة وكل امرأة داخلها رجل، وأن هرمون الذكورة والأنوثة يُفْرَزَان في كلٍّ من الرجل والمرأة، لكن نسبة هرمون الأنوثة تزيد في المرأة وفي الرجال تزيد نسبة هرمون الذكورة، وأن هذه النسب تختلف من شخص إلى شخص، ومن سنٍّ إلى سن، ومن وقتٍ إلى وقت، وقد أثبتت الحقائق العِلمية النفسية أن الإنسان ليس مزدوج الجنس بيولوجيًّا فحسب، ولكنه مزدوج الجنس أيضًا من الناحية النفسية والوجدانية، وقد وصف نيومان (١٩٥٤م) نوعين من الشعور داخل الإنسان: الشعور الأبوي والشعور الأموي، وأنَّ لكل إنسان إمكانيتَين؛ إحداهما ذكرية والأخرى أنثوية، ويُفصح كل جنس من الجنسين عن الإمكانية التي حددها له المجتمع، بينما تبقى الإمكانية الأخرى كامنة في نفسه. ومعنى ذلك أن الرجال يُظْهِرون صفاتهم الذكورية ويُخْفُون صفاتهم الأنثوية، وكذلك النساء يُظْهِرْنَ صفاتهن الأنثوية ويُخفين صفاتهن الذكرية.

وقد خرجت ليتلجون وماكوني (١٩٦٣م) من أبحاثهما العلمية بأن النساء المبدعات ذوات القدرة على الخلق والابتكار يُظْهِرْنَ ميولًا ذكرية، وكذلك المُبدعون من الرجال يُظْهِرون ميولًا أنثوية؛ وذلك لأن هؤلاء الأشخاص المُمتازين سواء كانوا نساءً أو رجالًا يشعرون بقدرة على الخروج على تقاليد المجتمع، ولا يُعانون من الكبت الذي يُعاني منه غير المبدعين.

وقد خرج بارون (١٩٥٧م) من دراساته العلمية بأن كثيرًا من الناس يُضحُّون منذ الطفولة بنبوغهم وقدراتهم الإبداعية وذلك من أجل إخفاء إحدى الإمكانيتَين الذكرية والأنثوية، والمحافظة على صفات جنسهم ذكورًا كانوا أو إناثًا.

وكتبت كارين هورني تقول: «إنَّ ازدواجية الجنس عند الإنسان تظهر في الأطفال بوضوح أكثر من غيرهم؛ لأنَّهم لا يُدركون كالكبار تحديد جنسهم، وقد ترى عند بعضهم رغبات جنسية مزدوجة ساذجة وبريئة، وتشعر البنت أحيانًا أنها ولد، ويشعر الولد أنه بنت، لكن المجتمع يُحدِّد لكل منهما صفاته ودوره فيكبت الولد شعوره بالأنوثة وتَكبت البنت شعورها بالذكورة.» ولهذا فإن الرغبات الذكورية التي تُظهرها البنت أحيانًا ليس لأنها تحسد أخاها الذكر (كما قال فرويد) لأنه يمتلك عضو التناسُل، ولكن لأن هذه الرغبات موجودة فعلًا بالطبيعة في كلا الجنسين، ونحن لا نرى بوضوح رغبة الولد في أن يكون بنتًا؛ لأن المجتمع يميز الذكر؛ وبذلك يصبح من العسير على الولد أن يترك ميزاته ليُصبح بنتًا، أما البنت فإن ميزات الذكر الاجتماعية تشجعها على إظهار ميولها الذكرية.

وإذا كان الجهاز التناسلي يختلف في بعض أجزائه ووظائفه في المرأة عن الرجل فإنه يتشابه في البعض الآخر؛ وذلك بسبب أن أعضاء الرجل هي أعضاء المرأة من حيث الأصل التشريحي، لكن عضو التناسل عند الرجل زاد في نموه وحجمه عن عضو المرأة الذي ظلَّ صغيرًا ليُكوِّن البظر، وأعضاء المرأة الخارجية الأخرى يُقابلها كيسا الرجل الخارجيان، والخصيتان هنا المبيضان ولكنهما هبطا من البطن إلى ما بين الفخذين وهكذا.

وإذا كانت وظيفة الخصية هي إفراز الحيوانات المنوية ووظيفة المبيض هي إفراز البويضة، وأن الجنين ينمو في رحم المرأة وليس في رحم الرجل، فليس هذا الاختلاف في وظيفة عضو من الأعضاء مبررًا لكل هذه الفروق الضخمة التي وُضِعَت بين الرجل والمرأة، وبالمثل فإن الزيادة في نسبة الميلانين بجلد الزنوج ليست مبررًا للفروق الضخمة التي وُضِعَت بين البيض والسود.

ومن حيث البيولوجي والفسيولوجي والتشريح فقد يختلف الرجل عن الرجل أو المرأة عن المرأة؛ فلكلِّ إنسان جسمه الخاص به، كالبصمة، ولا يُمكن لمجتمع عادل أن يُفرِّق بين

الناس في حقوقهم الاجتماعية وواجباتهم بسبب اختلافٍ ما فسيولوجي أو بيولوجي لعضو من أعضائهم.

وإذا كانت المرأة هي التي تحمل الجنين تسعة أشهر في رحمها قبل أن تلده فليس ذلك معناه أن يصبح دورها الوحيد في الحياة هو الحمل والولادة، وإذا كان الرجل هو الذي يَحمل الخصية التي تفرز الحيوانات المنوية فليس ذلك معناه أن يُصبح دوره الوحيد في الحياة هو إفراز الحيوانات المنوية وإخصاب المرأة، لا يمكن أن يعيش الإنسان حياته كلها ليلعب دورًا وحيدًا يقوم به عضو واحد من أعضائه، لا يمكن أن تعيش المرأة كرحم فحسب، وكذلك لا يمكن أن يعيش الرجل كخصية، وإلا كان معنى ذلك تعطيل وإبطال لكافة الأجهزة والأعضاء الأخرى.

ويُثبت علم الجينات والكروموسومات أن الضعف والسلبية اللذين ينسبهما المجتمع إلى طبيعة المرأة ليس لهما أساس عِلمي، بل إنه يتَّضح أن تكوين المرأة من الناحية الجسمية يُعطي المرأة فرصًا أكبر من الرجل من حيث متانة التكوين أو الإيجابية في الحياة؛ وبالتالي فإنَّ فكرة سيادة الرجل على المرأة — لأنه الجنس الأقوى أو الإيجابي — ليست إلا من صنع المجتمع.

إنَّ عدد الذكور الذين يُولدون في كل أنحاء العالم يفوق عدد الإناث (١٠٦ ذكر لكل ١٠٠ أنثى)، ومع ذلك فإن عدد الذكور يتساوى مع عدد الإناث عند سن الخمسين في البلاد الصناعية المتقدمة، أما في البلاد الزراعية المتخلِّفة نسبيًّا فإن عدد الذكور يتساوى مع عدد الإناث عند سن الخامسة والعشرين.

إنَّ هذا الارتفاع في نسبة الوفيات عند الذكور مقارنًا بالإناث يُؤدِّي إلى أنه في سن الثمانين لا يبقى على قيد الحياة سوى سبعين رجلًا لكل مائة امرأة.

ولو عرفنا أن جنس المولود يتحدَّد عن طريق الحيوانات المنوية، وأن السائل المنوي يحتوي على عدد مُتساوٍ من الحيوانات المنوية ذات الصفات الذكرية أو الصفات الأنثوية، فإنه من المفروض أن يولد عدد متساو من الذكور والإناث في أي مكان وزمان.

ولكن عند دراسة حالات الإجهاض اتَّضح أن نسبة الأجنة الذكرية تفوق بكثير الأجنة الأنثوية، وهكذا عند الولادة نجد أن عدد المواليد الذكور يفوق عدد الإناث بنسبة تتراوح بين (١٢٠–١٥٠) ذكرًا مقابل (١٠٠) أنثى، وترجع هذه الكثرة في المواليد الذكور إلى محاولة الطبيعة لتعويض الكثرة التي تحدُث في وفيات الذكور في كل مرحلة من مراحل العمر؛ أي إنها عملية تعويض طبيعية تهدف إلى سد الثغرة الناتجة عن ضعف الذكور النِّسبي أمام المرض والموت.

وقد أثبت العلم أن عمر المرأة أطول من عمر الرجل بنسبة سبع سنوات في المتوسط، وقد فُسِّرَ قِصَر عمر الذكر النِّسبي بأن الرجال يتحمَّلون من أعباء الحياة أكثر مما تحمله النساء، ولكن اتضح خطأ هذا التفسير بعد إجراء بحث استقصائي بين ثلاثين ألف راهبة وعشرة آلاف راهب يعيشون نفس الظروف المادية والاجتماعية والمعنوية؛ فقد اتَّضح من هذا البحث أيضًا أن عمر الإناث يفوق عمر الذكور بسبع سنوات في المتوسِّط، وهي نفس المدة التي لوحظت بين الناس العاديين.

فما هو السبب إذن في طول عمر المرأة؟

إنَّ التقدم الذي حقَّقه علم الوراثة في الإنسان، والدراسات التي أُجْرِيَت على أنواع مختلفة من الحيوان أوضحت أن ضعف الذكور النِّسبي (مقارنًا بالإناث) أمام المرض والموت قد نتج من الفارق بين التراث الوراثي في الذكر والتراث الوراثي في الأنثى، ويتكوَّن التركيب الوراثي للإنسان من أربعة وعشرين زوجًا من الجزئيات الوراثية تُسمى الكروموسومات، وهي توجد في نواة جميع الخلايا التي يتشكَّل منها جسم الإنسان، ولو أننا نظرنا إلى أحد هذه الخلايا من خلال عدسة مكبِّرة تزيد من حجم الخلية ٢٠٠٠ مرة؛ لرأينا داخلها هذه الكروموسومات على شكل خيوط رفيعة، منها ثلاثة وعشرون زوجًا كلٌّ منها من كروموسومين متشابهين تمام التشابه، وتُسمَّى هذه الأزواج المُتشابهة بالأتوسيومات، (أو الكروموسومات الجسمية غير الجنسية)، وتتشابه كلها في الذكر والأنثى، أما الذي يُحدِّد جنس الجنين (ذكرًا أو أنثى) فهو الزوج الرابع والعشرون، ويُسمى زوج الكروموسوم الجنسي، وهو يشبه الأتوسومات شكلًا، ولكن يختلف في وظيفته؛ لأنه هو الذي يُحدِّد الذكر من الأنثى.

وقد وُجِدَ أن هذا الزوج في خلية الأنثى يتكوَّن من كروموسومين مُتشابهين أُطلقَ عليهما «XX»، أما خلية الذكر فهي تحتوي على كروموسوم «X» واحد فقط، أما الكروموسوم الثاني فهو أصغر حجمًا (١ / ٥ حجم الكروموسوم X) وسُمِّي كروموسوم (Y)، كما أنه يحتوي على عدد أقل من خيوط المادة الوراثية التي تتحكَّم في مختلف العمليات البيولوجية، ووظيفة أقل إيجابية من الكروموسوم (X)؛ وبالتالي فإنه حين يخصب الحيوان المنوي الذي يحمل كروموسوم (Y) البويضة فإنه يضعف نسبة الأنوثة المطلوبة لإحداث جنين أنثى، وهكذا يرث الجنين الذكر — مع ذكورته — عددًا من الصفات المرتبطة بجنسه والتي تُضعفه عن الأنثى أو تشوهه.

إنَّ ظهور الشَّعْر الغزير في مناطق متعدِّدة من جسم الرجل قد يكون مشوهًا في بعض الأحيان، وقد اتَّضح أن الضعف الجنسي النسبي للذكور أمام المرض والموت مرتبط إلى حد

كبير بالكروموسوم الذكري (Y) الصغير والسَّلبي نسبيًّا، وأن كل تغيُّر أو تشوُّه يصيب أحد الخيوط الوراثية في الكروموسوم له انعكاسات مُتباينة الخطورة على العمليات الكيماوية الحيوية (التحليل والتمثيل) في الخلايا؛ وبالتالي على مختلف أجهزة الجسم الإنساني. إنَّ التحكُّم في العمليات الكيماوية الحيوية يتمُّ عن طريق الإنزيمات والخيوط الوراثية التي تُسمَّى أيضًا «جينات» والتي تُسيطر على تكوين الإنزيمات.

وحيث إنَّ الخلايا في الأنثى تحتوي على زوج من الكروموسومات الجنسية من النوع (X) فإنَّ أي نقص أو تشوُّه يصيب الجينات في أحد هذين الكروموسومَين يمكن أن يُعَوَّضَ بسهولة عن طريق الجينات الطبيعية الموجودة في الكروموسومات الآخر، ولكن إذا حدث أي نقص أو تشوُّه في تكوين أو وظائف الجينات الذكرية الموجودة في الكروموسوم (Y) فإنه يَستحيل تعويضه لعدم وجود كروموسوم آخر من نفس النوع في الذكر.

وقد ينتج عن ذلك ظهور قصور عضوي أو وظيفي بسبب غياب بعض الإنزيمات الأساسية أو تكوين إنزيمات غير سليمة، ومِن هنا حدوث بعض الأمراض الوراثية المرتبطة بجنس الذكور مثل مرض الهيموفيليا (النزف الوراثي الناتج عن عدم تجلُّط الدم)، وهو مرض ينتقل عن طريق كروموسوم الأنثى ويُصيب الأطفال الذكور فقط لعدم وجود الكروموسوم المعوض، ولنفس السبب تحدث الأمراض الوراثية الأخرى في الذكور مثل مرض عمى الألوان، وبعض أنواع الأنيميا والضمور العضلي وغيرها، ويصل عدد هذه الأمراض الوراثية إلى مائة، وهي جميعًا تُصيب الذكر دون الأنثى.

ومن المُحتمَل أن ضعف مقاومة الرجال النِّسبي إزاء أمراض الدورة الدموية ينبع من هذه الظواهر الوراثية أيضًا.

إنَّ جهاز الغدد الصماء يَلعب دورًا هامًّا فيما يتعلَّق بأمراض الدورة الدموية؛ فالخصيتان في الذكر تُفرزان هرمون الذكورة (التستوستيرون) تحت التأثير المستمر للمراكز المخية العليا والجزء من المخ المسمَّى الهيبوثالاماس (تحت السريرين)، والذي يتحكم في الانفعالات البدائية وفي جهاز الغدد الصماء، أما في الأنثى فإن المبيض يُفرز هرمونين اثنين: أحدهما هرمون الأستروجين والثاني هرمون البروجسترون.

ومن المسلَّم به الآن أن هرمون الأستروجين يمارس نوعًا من الحماية لجهاز الدورة الدموية كما يتَّضح من الانخفاض المفاجئ لقدرة المرأة على مقاومة أمراض الدورة الدموية عند وصولها إلى سن انقطاع الطمث، وهذه الظاهرة ملحوظة في المرأة في هذا السن، وعلى الأخص في حالات السكتة القلبية «التي تُصيب الرجل من كل الأعمار»، ولكنها لا تصيب

النساء إلا في الفترة التي تلي انقطاع الطمث، ومن ناحية أخرى فهناك من يرى أن بعض الصفات الذكرية مثل الميل إلى العدوان تَرتبط بالتكوين الهرموني للذكر، وقد أُجْرِيَت بعض التجارب في هذا الشأن، وحُقِنَت بعض الإناث من الحيوانات بهرمون التستوسترون الذَّكري فنتج عن ذلك سلوك عدواني في هذه الإناث.

وبرغم سلامة مثل هذه التجارب من الناحية العِلمية البحتة إلا أن العلم الحديث أصبح يتشكَّك في مثل هذه التجارب المعمَلية؛ حيث إن عنصر العوامل البيئية والتربوية غير متوافر فيها، ومما لا شك فيه أن صفات الإنسان وسلوكه في الحياة يتحدَّد حسب التربية التي يتلقاها منذ الطفولة وحسب الضغوط الاجتماعية التي يتعرَّض لها، وليس حسب نسب الهرمونات التي تجري في دمه، بدليل أن النساء الأمريكيات أكثر ميلًا للعدوان من الرجال في بعض البلاد الأخرى.

إنَّ علم البيولوجي الحديث أوضح أن المرأة أقوى بيولوجيًّا من الرجل، أما القوة العضلية التي ارتبطت بالحياة القبلية فمما لا شكَّ فيه أن الرجل كان يعتبر متفوقًا، لكنه اتضح أن هذا التفوُّق في القوة العضلية كان يرتبط بوظيفة الرجل في الحياة أكثر من ارتباطه بتكوين الرجل البيولوجي، بدليل أن الرجل المثقف في المدينة أقل من ناحية القوة العضلية من العامل الزراعي في الريف، والفلاحة المصرية أقوى من الناحية العضلية من الموظف القاهري.

هذا وإن القوة العضلية في ظل المجتمع العصري لم تَعُد لها أهمية خاصة؛ فالانتصار في الحروب الحديثة لم يَعد مرتبطًا بقوة الإنسان العضلية، بل على العكس أصبحت عوامل التفوق الذهني والتقدم التكنولوجي في وسائل الإبادة الجماعية هي العنصر الحاسم، وفي حروب أخرى كحربِ فيتنام، يرتكز الانتصار على الإيمان العميق بقضية عادلة.

وتُشير نتائج البحث الطبية الاجتماعية أن تَفوُّق الرجال على النساء لم يكن إلا إشاعة من صنع الرجال أنفسهم؛ فالأطفال الذكور هم الضحايا الأساسيُّون في الحوادث القاتلة التي تصيب قطاع الناس الذين يقلُّ سنهم عن ١٥ سنة (٦٨٪ من هذه الحوادث تصيب هؤلاء الأطفال الذكور)، أما في البالغين فإنَّ النساء لا يتحمَّلن سوى مسئولية ١٠٪ من حوادث الطريق، ٦٪ من الحوادث القاتلة أثناء قيادة السيارات مع إجراء المقارنة على نفس المسافات، كما أنهنَّ لسنَ مسئولات إلا عن نسبة ضئيلة جدًّا من حالات التشرُّد والإجرام: ١,٥٪ من الأحكام التي تصدر بالحبس بالسجن، ١٠٪ من الغرامات أو الأحكام بوقف التنفيذ، أقل من ٣٪ من الجنح الخاصة بالسكْر، وذلك مقارنة بالرجال الذين ينتمون إلى نفس المهن والبيئة التعليمية والاجتماعية.

وإنَّ حالات الانتحار بين الرجال تفوق عدد الحالات بين النساء بمقدار يصل إلى ثلاثة أو خمسة أضعاف حسب اختلاف البلاد.

وإن عدد مُدمِني المشروبات الروحية بين الرجال يصل إلى خمسة عشر ضعف الحالات المسجلة وسط النساء.

ورغم صفات الضعف والعاطفية التي التصقَت بالمرأة فإن النساء يتحمَّلن ظروف التهجير والغارات أكثر من الرجال، وقد لوحظ أن الأمراض النفسية العضوية (أمراض جسمانية تنتج عن عدم التكيُّف إزاء الضغوط الاجتماعية والعاطفية) لا تُصيب النساء بنفس القدر الذي تصيب به الرجال. إنَّ عدد حالات الإصابة بقُرحة في المعدة في الرجال تصل إلى ثلاثة أضعاف مثيلاتها في النساء، كما أن الرقم يصل إلى خمسة أضعاف في حالات السكتة القلبية.

ومِن المعروف أن المرأة تتعرَّض أكثر من الرجل لظروف اجتماعية قاسية ولاضطرابات نفسية بسبب الدورة الشهرية وانقطاع الطمث الذي يؤثر على المراكز العصبية المرتبطة بالغدد الصماء، ومع ذلك فإن عدد الرجال الذين يُعالَجون في مُستشفيات الأمراض العقلية والنفسية يفوق بكثير عدد النساء، ورغم دخول أعداد كبيرة من النساء في مِضمار الحياة العامة والعمل فإن شيئًا لم يتغير في هذا الوضع، ولا يزال عدد الرجال الذين يَهرُبون من الحياة إلى المخدِّرات أو الانتحار أو الإجرام أكثر بكثير من النساء، برغم أن المرأة أصبحت تتحمَّل في الحياة أعباءً مضاعفة بعملها داخل البيت وخارجه وتحت الظروف الاجتماعية السيئة نفسها التي تحرمها من كثيرٍ من الحقوق التي يتمتع بها الرجل، ويقول بعض العلماء: إن الجهاز المخي والعصبي يُصبح أكثر عرضة للإصابة بالخلل كلما كان أكثر تطورًا؛ لأنه يُصبح أكثر حساسية، ويدَّعون بذلك أن المرأة تتمتَّع بقدرة أكبر على التحمُّل؛ لأنَّ جهازها المخي والعصبي أقل تطورًا، وهذا ادِّعاء غير علمي؛ لأن الجهاز المخي والعصبي في الرجل لا يختلف عنه في المرأة، وقد أثبتت الإحصاءات والبحوث العلمية التي أُجْرِيَت في بعض المدارس الابتدائية أن البنات عامة أكثر ذكاءً من البنين، وأنهن يحصلن على درجات أعلى في التحصيل والذكاء وقوة الذاكرة.

وفقًا لأبحاث بعض العلماء مثل جيسيل وتيرمان؛ فإنَّ الأطفال البنات يَتكلَّمن قبل الأطفال الذكور، وإنَّ البنات يتقدمن في النمو أسرع من الأولاد، وقد قال بعض العلماء: إنَّ تفوُّق البنات على البنين في الدراسة ليس بسبب تفوُّق الذكاء، وإنما بسبب تربية البنت فتُعطي وقتًا أكبر للمُذاكرة، ويُؤكد هذا أن بعض علماء النفس أثبتوا أن امتياز البنات

على البنين يهبط في مرحلة البلوغ وما بعدها؛ بسبب الكبت الذي تبدأ البنت في المعاناة منه بسبب التربية الصارمة نفسها والصراعات والتناقُضات والضغوط التي يَفرضها عليها المجتمع.

وقد أثبتَت مارجريت ميد في أبحاثها أن المجتمع — وليس الطبيعة — هو الذي يُحدد ميول الأطفال ويُشكلها منذ الصغر سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا، وقد أجرَت مارجريت ميد تجربة طريفة في جزيرة مانوس بغينيا الجديدة، وأثبتَت خطأ الرأي الشائع بأن حب الأطفال البنات للعب بالدمية «العروسة» سببه دوافع أنثوية طبيعية، وعدم اهتمام الأطفال الذكور بهذا النوع من اللعب إنما سببه اختلاف بيولوجي أساسي في استجابتهم الوجدانية، وقد اختارت مارجريت ميد هذه الجزيرة؛ لأنَّ اللعب بالدُّمى لم يكن معروفًا بها، وعندما قدَّمت مارجريت ميد بعضًا من هذه الدُّمَى إلى مجموعة من الأطفال الذكور والإناث كان الذكور وليس الإناث هم الذين اهتموا بها، بل راحوا يُغنُّون لها ويُهدهِدُونها لتنام كما تفعل البنت مع دميتها في مجتمعنا، وقد فسرت مارجريت ميد السبب في ذلك، وهو أن عادات وتقاليد جزيرة مانوس تقتضي أن يتولى الرجال (لما لديهم من وقت فراغ) رعاية الأطفال، على حين تَنشغِل النساء بالعمل خارج البيت.

وقد حاول بعض العلماء في السنوات الأخيرة معرفة أثر الجنس على المخ، فمِن المعروف أن هرمونات الجنس تدخل المخ مع الدم، لكن البحوث العِلمية حتى الآن لم تُثبت وجود أي علاقة بين هذه الحقيقة الفسيولوجية وبين القُدرة الفِكرية أو السلوك.

وكان البعض يَعتقِد أن قُدرة المرأة الفكرية أقل من الرجل؛ لأنَّ مخها أقل وزنًا من مخه، لكن اتَّضح خطأ هذا المفهوم بعد ثبوت أن وزن مخ المرأة بالنسبة لوزن جسمها أثقل من وزن مخ الرجل بالنسبة لوزن جسمه.

ثم اتَّضحت حقيقة أهمُّ من هذا كله؛ وهي أن وزن المخ لا علاقة له بالقوة الفكرية.

ويعتقد بعض العلماء أن المرأة أذكى من الرجل؛ لأنَّ الفص الأمامي من مخها (والذي يعتبر مركز الذكاء) أكثر تطوُّرًا منه في الرجل، على أي حال فإنَّ المخ لم يُعْرَف معرفة كاملة، ولم يستطع العلم أن يكشف عن أسرار وظائفه.

ومن حيث النبوغ والعبقرية والابتكار فليس هناك بحوث تثبت أن الرجل أكثر عبقرية من المرأة، ولكن عدد الرجال النابغين يفوق عدد النساء بسبب الظروف الاجتماعية التي تعيشها النساء والتي تحول بينهنَّ وبين النبوغ، وكما قالت ماري إستيل: «يجب على الرجل ألا يَفخر أنه أكثر نبوغًا من المرأة ما دام هو يحظى بفرص أكثر من التعليم العالي والعمل في الحياة الواسعة خارج البيت فكأنه يفخر بشجاعته لضرب رجل قُيِّدَت يداه وقدماه.»

ويُشير تورانس إلى أن قلة عدد النابغات من النساء ليس لفروق جنسية كما عُرِفَ خطأً، ولكن لأنَّ الإبداع يَتطلَّب الحساسية والاستقلال، وطبقًا لقيَم المُجتمع ونظمه فإنَّ الاستقلال من ميزات الرجولة فحسب، وعلى ذلك تفقد النساء الاستقلال وتفقد معه القدرة الإبداعية.

وفي علم النفس حقيقة علمية تُثبت وجود علاقة بين الكبت وانخفاض القُدرة الفكرية في الإنسان، وأن القدرة على الابتكار والخلق تعتمِد على انعدام الكبت، وكما قال «بارون»: «إن الأصالة تعتمد على تجاوب الإنسان الحر لمشاعره.» وحيث إنَّ نصيب المرأة من الكبت منذ طفولتها حتى مماتها أضعاف نصيب الرجل، فلا بدَّ أن قدرتها الفكرية تَنخفِض بسبب ذلك الكبت.

كما أنَّ انعزال المرأة عن الحياة داخل البيت وانشغالها بأعمال البيت والأولاد يحول بينها وبين التفرُّغ للأعمال والتدريبات اللازمة لتنمية قدرتها الفكرية أولًا بأول، وقد تطوَّر علم النفس الخاص بالمرأة في السنوات الأخيرة، وأثبت علماء النفس خطأ المفاهيم التقليدية عن سيكولوجية المرأة، وقد كتب ديلياس يقول: «إن علم النفس الخاص بالمرأة ليس إلا رواسب رغبات الرجال وخيبة آمالهم.»

وقد اتَّضح أن الفروق النفسية الضخمة التي وصفها فرويد بين الرجل والمرأة لا أساس لها من الصحة، ويقول هارولد كيلمان: «إنَّ فرويد تربَّى في مجتمع رجالي، ونشأ في بيت كان فيه الرجل السيد والمرأة العبد.» وقد أخطأ فرويد في فهمه للمرأة، واستخلص أفكاره عنها من الحالات المرَضية التي كان يراها بين نساء أوروبا الخاملات العاطلات، ومن بعض مريضات وشواذ الطبقة البرجوازية في مجتمَع فيينا المتآكل، وحكم فرويد بهذه الأفكار الشاذة على جميع نساء العالم، وحكم بها عليهنَّ من بعدِه جميع تلاميذه ومُقلِّدوه ومُريدوه وتابعوه من أطباء النفس.

وتُمثِّل عقلية فرويد عقلية القرن التاسع عشر حين كان العقل البشري في بداية تفتحه ومعرفته بالعلوم الطبيعية، ولم يكن أدرك بعدُ أثر المجتمع والظروف في نفس الإنسان، وأخرج فرويد كذكر «علم نفس مذكَّر» يرتكز على أن مصير الإنسان يتحدَّد حسب أعضائه التناسلية والتشريحية.

وترتكز أفكار فرويد عن نفس المرأة أن البنت تكتشف في طفولتها أنها لا تملك عضو التناسل الذي يملكه أخوها فتشعر نحوه بالحسد، ويقول فرويد: «إنَّ النساء لسنَ كما هنَّ نساء، ولكنهن ذكور ينقصُهن عضو التناسل، وهن يرفضن قبول هذه الحقيقة، حقيقة أنهن مخصيات، ويَعِشن بأمل أنهن سيحصلن على عضو تناسل رغم أي شيء.»

والمرأة السوية في نظر فرويد هي تلك التي تستبدل برغبة الحصول على العضو رغبة الحصول على طفل، وهو يعني بذلك أن الأمومة عند المرأة ليست إلا رغبة ثانوية بديلة عن الرغبة الأصلية، وهي الحصول على عضو الذكر.

ويقول فرويد: إنَّ البنت تُلقي اللوم على أمها في حرمانها من هذا العضو؛ ولهذا فهي تبتعد عن أمها وتقترب من أبيها بأمل الحصول على طفل، لكن سرعان ما تَشعُر بخيبة أمل في أبيها؛ لأنه يَخذلها ولا يُحقِّق لها رغبتها في الحصول على الطفل، وبهذا تُشْفَى من ميولها الأوديبية وتستسلم لدورها الأنثوي، وتُرضي أمومتها ودورها الجنسي عن طريق الألم وامتهان النفس وقبول الاغتصاب.

هذه هي سيكلوجية المرأة السوية الطبيعية في نظر فرويد، أما المرأة غير السوية فهي تلك التي تَعجز عن أن تستبدل برغبتها الأولى الرغبة الثانية، وتعيش في حسرة دائمة؛ لأنها حُرِمَت من عضو الذكر، وقد تَرفض دورها كأنثى في الحياة رفضًا تامًّا، أو قد تُصبح ميولها ذكرية وتأخذ دور الذكر.

وقد أثبت كثير من العلماء خطأ هذه الأفكار، وتقول كارين هورني (وهي من أشهر طبيبات النفس في العالم): «إن البنت لا تَحسُد الولد لأنه يملك عضو التناسل، ولكنها تحسده للميزات التي يعطيها المجتمع الرجالي للذكر.» وتتَّفق كارين هورني مع هارولد كيلمان وغيره من العلماء في أن الثقافة اليهودية والمجتمع الذي عاش فيه فرويد ترك بصماته على أفكاره، ويقول هورني: «إن الثقافة اليهودية — كما وردَت في التوراة — ثقافة أبوية ذكرية، وهذه الحقيقة تظهر في دينهم اليهودي؛ حيث لا توجد إله أنثى أو إله أم، كالآلهة الأم القديمة، وفي قصة آدم وحواء أنكرت الديانة اليهودية قُدرة المرأة على الإنجاب وأعطَت هذه القدرة للرجل إذ قالت: إنَّ حواء وُلِدَت من ضلع آدم، وإن لعنة قد أُلْصِقَت بحواء إلى الأبد؛ ذلك أن تلد في الألم والأسى، وإنَّ حواء هي السبب في شقاء آدم؛ لأنَّها أغرته بأن يأكل من شجرة المعرفة كإغراء جنسي.» وتَعتقِد كارين هورني أن الديانة اليهودية بهذه الأفكار هي التي أفسدت العلاقة بين الرجل والمرأة منذ العصور القديمة حتى الآن، وخلقت بينهما الكراهية والقلق، هذه الكراهية وهذا القلق هما اللذان بنى عليهما فرويد أفكاره.

ويتَّجه علم النفس الحديث إلى إلغاء تلك الفروق الضخمة المُصطنعة بين نفسية المرأة ونفسية الرجل، ويرى بعض العلماء أنَّ الإنسان مُزدوَج الجنس نفسيًّا كما هو مزدوج بيولوجيًّا، وقد وصف نيومان نوعين من الشعور داخل الإنسان: الشعور الأبوي والشعور

الأموي، وأنَّ لكل إنسان إمكانيتَين؛ إحداهما ذكرية والأخرى أنثوية. ويرى بعض العلماء أن تكوين المرأة النفسي كتكوينها البيولوجي أكثر متانةً من الرجل، وتُعْتَبر المرأة في رأي هؤلاء الجنس الأقوى وليس الجنس الأضعف كما أشيع.

ولعلَّ هذا الاعتقاد يتَّفق مع الاعتقاد البدائي بقوة المرأة، وقد كانت الإلهة القديمة هي الأم والأنثى، ولم تكن الإلهة الأم تُمثِّل الأمومة الروحية، ولكنها كانت تمثل الأمومة بمعناها الطبيعي البدائي. إن الأم الإلهة القديمة كانت إلهة الأرض، خصبة الأرض، تخلق الحياة الجديدة وتُغذيها. إنَّ هذه القوة الخالقة في المرأة وهي قوة بدائية هي التي ملأت الرجل بالإعجاب، ومن المعروف عِلميًّا أن الإنسان يعجز — بحكم طبيعته البشرية — أن يحتفظ بإعجابه بقُدرة ما، دون الشعور بالكراهية لهذه القُدرة، التي لا يَملكها هو ويملكها غيره، ومن المعروف أن الكراهية تولد الخوف أو أن الخوف يولد الكراهية؛ ولهذا فإن خوف الرجل من قوة المرأة قديم الزمن، مدفون في اللاوعي يزداد حدَّة في فترة إخصاب المرأة، ويظهر بوضوح عند بعض القبائل البدائية.

إنَّ بعض القبائل الأفريقية تؤمن بأن المرأة إذا خطت فوق ساق رجل نائم فإنه يَعجز جنسيًّا، وقبيلة أرونتا تعتقد أن المرأة يُمكن بالسحر أن تجعل زوجها عاجزًا جنسيًّا وتُسقط عنه أعضاؤه التناسلية، وهناك حتى الآن اعتقاد في الريف المصري بأن المرأة قد تعمل سحرًا لزوجها إذا هجرها فيَعجز جنسيًّا، وإن سكان ميري في البنجال لا يسمحون للنساء بأن يأكلن كالرجال لحم النَّمر خشية أن يُصبِحن قويات، وإنَّ قبيلة واتاولا في شرق أفريقية يُخفون سرَّ عمل النار عن النساء خشية أن تحكمهن النساء، ويعتقدون أن الرجل الذي يلمس المرأة في فترة الحيض يسقط ميتًا، وهناك كثير من الأمثلة على شدة خوف الرجل من مظاهر إخصاب المرأة كالحيض والحمل والولادة، وهناك فكرة واحدة وراء كل هذا الخوف؛ وهو أن المرأة كائن له قوة غامضة قادرة على الاتصال بالأرواح وقادرة على السحر وإيذاء الرجل.

وكان من الطبيعي أن يُقاوم الرجل خوفه من المرأة بوسائل شتى، منها ازدراء صفات المرأة البيولوجية الطبيعية كالحيض والحمل والولادة، وتحقير أعضاء المرأة وتمجيد أعضاء الرجل إلى غير ذلك من الأساليب الدفاعية التي يلجأ إليها الخائف ضد الشيء الذي يُخيفه، وتركز خوف الرجل من المرأة في الناحية الجنسية بالذات؛ لأنه أثناء الجنس يُسلم عضوه التناسُلي لها فإذا بها تسحب منه سائله المنوي وتسحب معه صلابته ثم تتركه هامدًا بغير الصلابة التي كان عليها، ومن هنا الاعتقاد الشائع بأن المرأة تسحب قوة الرجل أثناء

الجنس، وفي الأساطير الأفريقية فإن المرأة هي التي تُسبِّب الموت في العالم، وكذلك الاعتقاد بأن الأم الإلهة القديمة هي التي تبعث الموت والدمار، وكأنَّما أدرك الإنسان البدائي أن الذي يصنع الحياة هو القادر على أخذها.

وكم يدلُّنا التاريخ القديم على حقائق غريبة تُلْقِي ضوءًا على تلك الأفكار التي أحاطت بعلاقة الرجل والمرأة والمفاهيم الخاطئة عن المرأة جسدًا أو نفسًا، وقد كان فرويد بغير شك أحد هؤلاء الرجال الذين عانوا من خوفهم القديم الدَّفين من المرأة، ولأنه كان عبقريًّا فقد صنع من خوفه حقائق علمية لم يُكْتَشَف خطؤها للأسف إلا مؤخرًا.

الأسباب الحقيقية

لم تعُد الأسباب الحقيقية التي دعت المجتمع إلى خلق الفروق الضخمة بين الرجل والمرأة خافية على هؤلاء الذين يَقرءون التاريخ ويَدرُسون حركة التطورات الاجتماعية والاقتصادية في تاريخ البشرية منذ الإنسان حتى أيامِنا هذه.

ولستُ بصدد سردها وتحليلها من البداية حتى الآن، ولكني سأسوق بعض الحقائق التي تكشف عن تلك الأسباب وعن أن المجتمع هو صانعها وليس الطبيعة.

في عهد الصيد وعهود ما قبل التاريخ كان الإنسان البدائي ينتقل من مكانٍ إلى مكان ليَصيد طعامه، وكان الرجال والنساء يعيشون معًا ويَتزاوَجون، وحينما يولَد الأطفال يُصبحُون أفرادًا في القبيلة أو العشيرة بصرف النظر عن آبائهم أو أمهاتهم، ولم يكن الإخوة أو الأخوات هم أبناء أو بنات أب واحد أو أم واحدة، كانوا جميعًا أبناء القبيلة بالتساوي، وكانت المرأة تتزوَّج عددًا من الرجال والرجل يتزوَّج عددًا من النساء، وأطلق «باكوفين» على هذا النوع من العلاقات المتعدِّدة بالزواج الجماعي.

وقد تَوصَّل بعض الباحثين في عهود ما قبل التاريخ إلى هذا النوع من العلاقات الجماعية التي كانت تُخْجِل الباحثين؛ لاعتقادهم أنها كانت تدلُّ على همجية الإنسان البدائي وعدم تمديُنه، ولكن أحدهم وهو «ليتورنو» كان أكثر شجاعة وأمانة وقد استطاع أن يصفَ هذه العلاقات الجنسية، ويشرح «فردريك إنجلز» في كتابه «أصل العائلة» كيف تطوَّرت العلاقة الزوجية في عهود ما قبل التاريخ، وأن تعدُّد العلاقات الزوجية ليس معناه انحطاط الإنسان الأول، وأن الوحدانية في التزاوج ليس معناه سمو الإنسان الحديث، وكتب إنجلز: «إذا كانت الوحدانية في التزاوج هي قمة الفضائل فلا بدَّ أن أكثر الكائنات فضيلةً هي الدودة الشريطية التي يشتمل كل جزء من أجزاء جسمها (والتي تتراوَح ما بين ٥٠–٢٠٠ جزء) على جهازَي التذكير والتأنيث.»

وكشف ليتورنو من أبحاثه العِلمية في مختلف أنواع القرود والثدييات عن أنه لا تُوجد علاقة في الثدييات بين درجة الذكاء وشكل العلاقة الجنسية.

وكان «بيكوفين» أول من اكتشف النظام الأموي الذي كان يسود في العهود البدائية والبربرية، ففي هذه الأسر الجماعية لم يكن من السهل معرفة الأب، لكن الأم كانت معروفة؛ لأنها هي التي تلد الأطفال، ولهذا نُسِبَ الأطفال إلى أمهاتهم، وكانت الأم هي عصب العائلة.

وكانت المرأة تقوم بأكثر أعباء الحياة، وكانت لها مرتبة أعلى من مرتبة الرجل، وكانت العشيرة تَحترمها احترامًا كبيرًا.

ثم عرف الإنسان تربية الماشية والأغنام ولم يكن يملك إلا البيت والملابس وأدوات الطعام وقوارب صيد وأدوات للزينة، ولم يكن يُنْتِج إلا طعامه، لكن تربية الماشية والأغنام، ثم بعض الأعمال المعدنية البدائية والنسيج، ثم زراعة الأرض جعلت إنتاجه يزيد عن حاجته فتجمَّعت لديه بعض الثروة وأصبح مالكًا لأرضه.

ولأن تناسُل الإنسان لم يكن بالسرعة التي تتناسَل بها الأغنام والماشية؛ فقد بدأ المالك البدائي يشعر بحاجته إلى أشخاص آخرين ليُعاونوه في الزراعة وتربية الماشية، وبدأ الإنسان الأول يغزو القبائل الأخرى ويَصطاد منها بعض الأسرى يسوقهم معه إلى أرضه وبيته ليكونوا خدمًا وعبيدًا.

ولم يستطع المالك البدائي أن يُورِّث أبناءه أرضه؛ لأنَّ أولاده كانوا يُنْسَبون إلى أمهاتهم، وكانت الأرض تذهب إلى أقارب الأم بحُكمِ قرابة الدم.

وحينما زاد الإنتاج وزادت الثروة وزادت معها المِلكية الخاصة فرض الرجل سيطرته أكثر وأكثر، وانتزع من الأم حقَّها الأول ليَنسِب أولاده إليه ويورثهم أرضه وأملاكه.

ويقول إنجلز: إنَّ ضياع حق الأم في النَّسب كان هزيمة النساء التاريخية الكبرى؛ فقد سيطر الرجل على البيت أيضًا، وأصبحت المرأة عبدًا له تقوم على خدمة شهوته، وتكون أداةً لإنجاب أطفاله، وأعطى نفسه حقَّ قتلها كما كان يَقتل عبيده.

وبدأ النظام يتطور أكثر وأكثر لصالح الرجل بطبيعة الحال، وفرض الرجل على المرأة أن تكون له وحده حتى لا يَختلِط أولاده بأولاد الغير، وأعطى نفسه حقَّ تعدُّد الزوجات والخليلات، فأصبحت الوحدانية في الزواج فرضًا على المرأة وحدها.

ومن هنا نبعَت القيم الأخلاقية التي تحكم على المرأة بالعفة والوحدانية في الزواج، وتعطي الرجل حرية الاتصال بمن يشاء من النساء وتعدُّد الزوجات، وقُيِّدَت المرأة بالقوانين التي تسحب من أطفالها شرعيتهم إذا لم يعترف بهم أبوهم، سلب الرجل حق الأم في الجنين

الذي ينمو في أحشائها، وجعَل نفسه مالكًا لهذا الجنين، يمنحه اسمه فيصبح ابنًا شرعيًّا يستحق الميراث ويستحق الحياة في المجتمع، أو لا يَمنحُه اسمه وينكره فيصبح طفلًا غير شرعي يحكم عليه المجتمع وعلى أمه بالموت أو الحياة الذليلة التي هي الموت سواء بسواء.

ويُخْفِي المجتمع الدوافع الاقتصادية الاستغلالية التي نشأت بنشوء الملكية الخاصة، والتي فرضت العفة على المرأة وليس الرجل، ويسوق دوافع أخلاقية، لكن الحقائق التاريخية والعلمية تُثبِت في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع أن القيم الأخلاقية والقوانين تخضع للضرورة الاقتصادية، ليس أدلَّ على ذلك من التطورات التي حدثَت في علاقة الرجل والمرأة بعد أن تغير المجتمع من الزراعة إلى التصنيع ومن التصنيع إلى عهد التكنولوجيا والآلات الحديثة، كذلك تغيَّرت علاقة الرجل والمرأة في بعض البلاد بانتقال المُجتمع من الرأسمالية إلى الاشتراكية.

في الفترات الأولى لعهد التصنيع كان المجتمع فقيرًا يعاني من انخفاض شديد في المستوى الاقتصادي للناس، وكانت ولادة الأطفال خارج الزواج تُهدِّد المجتمع اقتصاديًّا، ولم تكن المرأة تعمل وتعول نفسها بل كانت عالة على الرجل؛ ولهذا اشتدَّت القيود الأخلاقية على النساء وحرمت العلاقة الجنسية خارج الزواج وأدانت الأطفال غير الشرعيين.

وحينما انتعش المجتمَع اقتصاديًّا — بتطور الصناعة — وزادت الثروات وارتفع المستوى الاقتصادي والثقافي للناس؛ وبالتالي انخفض عدد المواليد بدرجة شديدة؛ أصبح المجتمع يعاني من نقص في السكان فإذا به يتغاضى عن ولادة الأطفال بأيِّ شكل سواء داخل الزواج أو خارجه.

وهذا هو ما يحدث الآن في بعض البلاد المتقدمة ومنها السويد؛ فقد سبَّب التطور الصناعي ارتفاعًا كبيرًا في الثروات، كما أنَّ المدنية والتقدم الثقافي وخروج المرأة إلى العمل قد أحدث هبوطًا كبيرًا في عدد المواليد، وبسبب الازدياد المضطرد في الثروات والقلة المضطردة في عدد الأيدي العاملة والسكان؛ فقد اضطر المجتمع السويدي مثلًا إلى دفع مكافآت للأم التي تلد طفلًا سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة، وهكذا حصلت الأم غير المتزوجة على مكافأة المجتمع عن طفلها الوليد بدل العقاب القديم، وتمتَّع الطفل غير الشرعي بجميع الحقوق التي يتمتَّع بها الطفل الشرعي.

وهناك عامل اقتصادي آخر هو خروج المرأة للعمل خارج البيت، ولم يسمح لها المجتمع بذلك الدور الجديد خارج البيت الذي قيَّدها به إلا بسبب الضرورة الاقتصادية

التي نشأت مع التصنيع؛ فقد أصبح المجتمع في أشد الحاجة إلى الأيدي العاملة وبالذات في فترات الحروب حين كانت الحرب تسحب كثيرًا من الأيدي العاملة من الرجال، واضطرَّ المجتمع إلى الاستعانة بالنساء بل والأطفال أيضًا، ولم تَحتفِظ النساء — بطبيعة الحال — في مثل ذلك المجتمع الاستغلالي بالمساواة مع الرجال في الأجور أو حقوق العمل الأخرى، لكنها تحرَّرت من الانغلاق داخل البيت، وتحرَّرت من كونها عالةً على الرجل، وأصبحت قادرة على إعالة طفلها الذي تلده سواء اعترف به الرجل أم لم يَعترف، ومن هنا حصلت المرأة في كثير من البلاد الصناعية المتقدِّمة على حقها الطبيعي القديم في منح اسمها لطفلها، ولم تعُد مثل هذه المجتمعات تُفرِّق بين الأطفال الحاصلين على أسماء أمهاتهم، وهؤلاء الحاصلين على أسماء آبائهم سواء داخل الزواج أو خارجه، وفي بعض البلاد يَحصل الطفل على اسمَي الأب والأم معًا، ثم يختار من بعدُ الاسم الذي يفضله لنفسه.

وقد يَندهش بعض الناس حين يُدركون أن القيم الأخلاقية تتغير وتتبدَّل في المجتمع حسب الضرورة الاقتصادية، بل لعلَّهم يَندهشون أكثر حين يدركون أن الحقائق العلمية ذاتها تتغير بتغير النظام الاجتماعي والاقتصادي، وقد لا يكون غريبًا أن تتغير بعض النظريات والحقائق في العلوم المتَّصلة بالنظام الاجتماعي كعلم القانون أو علم المجتمع أو علم الاقتصاد، ولكن أن تتغير الحقائق والنظريات العِلمية في علوم مثل الطب أو علم النفس، فهذا يدل على أن العلم في المجتمعات الاستغلالية يُستغل أيضًا، ويصبح رجال العلم كرجال القضاء والبوليس؛ أحد أدوات الحكم.

وقد كشف بعض علماء النفس أخيرًا عن خطأ الكثير من الحقائق والنظريات التي نشَرها علماء النفس في ظلِّ المجتمع الرأسمالي وعلى رأسهم سيجموند فرويد؛ مثال ذلك: نظرية «التسامي» وهو الاصطلاح الذي وضعه فرويد لعمَلية توجيه الطاقة الجنسية في الإنسان إلى أعمال في المجتمع غير جنسية.

ويقول علماء النفس الجُدُد: إن مفهوم «التسامي» نبَع من الضرورة الاقتصادية التي سادت المجتمع الرأسمالي في بداية عهده بالتصنيع حين كان المجتمع ينتقل من الزراعة إلى الصناعة، كان المجتمع في ذلك الحين محدود الإمكانيات، ولم تكن الصناعة تقوم على الآلات وإنما على الجهد الإنساني؛ ولهذا كان المجتمع في أشد الحاجة إلى عَرقِ العُمال وجهدهم ليل نهار، ولم يكن يستطيع المجتمع أن يُحقِّق هذا إلا بالقوَّة عن طريق القهر المادي أو الاجتماعي، وكذلك بجعل العمل والصناعة ضرورة نفسية عن طريق خلقِ قيَم أخلاقية تُمجِّد العمل وتجعله واجبًا مقدسًا وليس واجبًا فحسب.

ولهذا فقد صاحَبَ تجمُّع رأس المال في تلك الأزمنة الأولى للرأسمالية مجموعة من قيَم أخلاقية تَرتكِز على العفة والتطهر والعزوف عن متع الحياة والاستقامة بشتَّى أشكالها، وسُمِّيَت هذه القيم بالقيم الأخلاقية البيوريتانية (أو العظيمة النقاء).

وقد ظهرت هذه القيم البيوريتانية في إنجلترا وبلاد أوروبا المُختلفة على شكل الأخلاقيات البروتستانتية المتزمِّتة.

وكان علماء النفس في ذلك الحين — وعلى رأسهم فرويد — قد خرجوا إلى الناس بذلك المفهوم الذي أطلقوا عليه «التسامي»، ويَرتكِز على أن الإنسان الذي يكبِت غريزته الجنسية، ويحوِّلها إلى أعمال أخرى غير الجنس، فهو يتسامى بها إلى أعمال أخرى أكثر قيمةً وأكثر نبلًا.

وحينما بلَغ المجتمع درجة عالية من التصنيع، وارتفع مستوى المعيشة، وانخفض عدد ساعات العمل، ولم يَعُد العمل يَعتمِد على القوة الجسمية للإنسان، حينها أصبحت قوة الإنسان مُرتفعة الثمن.

وحينما استدعى التطور التكنولوجي واستمرار التطور الاقتصادي زيادة في استخدام الآلات والمكنات، حينئذ فقدت القيم الأخلاقية البيوريتانية وظيفتها، وأصبح من الطبيعي لمجتمع استهلاكي ألا يُمجِّد قيم العزوف عن متع الحياة والاستقامة والادِّخار والتسامي وغيرها من القيم التي تُقلِّل استهلاك الفرد.

وبدلًا من ذلك أصبح المجتمع في حاجة إلى أن يصنع لنفسه أخلاقيات أخرى تَعتمِد على إشباع رغبات الإنسان وحاجاته، بل وخلق احتياجات جديدة في الإنسان، وتمجيد معنى الإنفاق والاستمتاع بالحياة.

وممَّا لا شك فيه أن التغيير الأخير الذي حدث في نظرة البلاد الرأسمالية المُتقدِّمة إلى القيم الأخلاقية وفي اتجاه هذه البلاد إلى تحطيم المحظورات التقليدية على علاقة الرجل والمرأة وتحرير الجنس من قيوده القديمة هذا التغيير لم يَحدُث إلا نتيجة تغيُّر الوسائل لتجميع رأس المال.

إنَّ «التسامي» وتحويل الطاقة الجنسية إلى أعمال أخرى لم تَعُد ضرورية كما كانت من قبل، حيث إنَّ إشباع الرغبة الجنسية لم يَعُد يؤثر على الإنتاج كما كان يُؤثر عليه في مجتمع غير آلي.

ويقول بعض العلماء: إنه بالإضافة إلى ما سبَق فإنَّ الحرية الجنسية أصبحت ضرورية لحماية المجتمع الرأسمالي مِن التمرُّد والثورة؛ فقد نتج عن التقدم التكنولوجي والآلي أن

انخفضَت كمية الجهد والوقت اللذَين يبذلهما الإنسان في العمل، وبازدياد وقت الفراغ عند الناس بدأت الأذهان تَتنبَّه إلى مساوئ النظام الرأسمالي وإلى مظاهر عدم المساواة أو الظلم الواقع على الطبقات الكادحة من المجتمع، وهكذا رأى الرأسماليُّون تصريف هذه الطاقة إلى الجنس بدلًا من أن تَتجمَّع وتُصبح قوة تمرُّد وثورة ضد المجتمع القائم.

على أن هذا الوضع الجديد لا يعني ازدياد الحرية الجنسية فحسب. إنَّ الاهتمام في المجتمع الاستهلاكي يُمكن أن يتحوَّل أيضًا إلى اصطناع احتياجات في الإنسان لشراء الأشياء وامتلاكها، إنَّ هذه الاحتياجات تُصبح مصنوعة حين تدفع الإنسان إلى شراء أشياء لا يحتاجها وإنما يرغب في امتلاكها فحسب.

وتختلف المجتمعات الرأسمالية في الأسلوب الذي تتحرَّر به من الأخلاقيات البيوريتانية باختلاف التقاليد الموروثة في المجتمع، هناك مجتمع — مثل مجتمع السويد والدانمارك مثلًا — قد ورثا تقاليد قوية تُحرِّم الإجرام والعنف، بينما التقاليد الموروثة التي تحرِّم الجنس أقل قوة، والعكس صحيح في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ورث المجتمع الأمريكي (من كثرة الحروب الأهلية والصراع العنصري) تقاليد تُبيح العدوان والعنف وتجعل المجتمَع يتقبلها أكثر من تقبله للتحرُّر الجنسي؛ ولهذا فقد أصبح المجتمع الأمريكي يَميل إلى إباحة العنف والجريمة أكثر من إباحته للحرية الجنسية.

حينما كنت في نيويورك سنة ١٩٦٦م كدتُ أُقْتَل في منتصَف النهار في ميدان واشنطن بإحدى الرصاصات الطائشة التي كانت تنبعث من سيارة طويلة أنيقة ركبها عدد من الشباب.

ومن كثرة الجرائم وانتشارها فقد عزَّزت ولاية مدينة نيويورك (في ذلك العام الذي عشته فيها) قوات الأمن وبالذات في القطارات التي تَسير تحت الأرض، وأصبح بكل عربة رجل بوليس على الأقل، وكانت صديقاتي الأمريكيات يَنصحنني بعدم الخروج ليلًا.

وقد زرت السويد والدانمارك في سنة ١٩٧١م، وكنت أهبط من حجرتي في الفندق بعد منتصف الليل لأسير في شوارع ستوكهولم أو كوبنهاجن الهادئة الآمنة الخالية إلا من بعض العاشقين والعاشقات.

وقد شهدت بالطبع مقدار الحرية الجنسية التي يُبيحها المجتمع السويدي والدانماركي لأفراده الرجال والنساء، واطلعت على بعض الأبحاث التي أُجْرِيَت في السنوات الأخيرة في السويد والتي تثبت أن ٩٨٪ من الأزواج والزوجات سبق لهم ممارسة الجنس قبل الزواج، وأن ٢٪ فقط من الرجال أو النساء لا يُمارسون الجنس قبل الزواج، هذا وقد

أصبح الشباب من الجنسَين في هذه البلاد يميلون أكثر وأكثر إلى نبذ فكرة الزواج بعقد مكتوب.

ولم تعدْ هناك فروق بين الرجل والمرأة من حيث الحرية الجنسية، وكما كان من حق الرجل أن يُمارس الجنس وقتما شاء ومع من يرغب من النساء أصبح من حق الفتاة أن تفعل بالمثل.

وتلاشت القيمة الأخلاقية التي تعدُّ ممارسة الجنس بغير عقد الزواج خطيئة وإثمًا، ومن أقوال روبرت بريفولت في كتابه «الإثم والجنس» سنة ١٩٣١م: «إن المساواة الاقتصادية والسياسية للرجال والنساء تفرض المساواة الأخلاقية، وهكذا تكون النتيجة المنطقية أن أخلاقيات المرأة في المستقبل ستُصبح كأخلاقيات الرجل الفيكتوري المسيحي المحترم، وهذا يعني بطبيعة الحال انهيار الأخلاقيات المسيحية.»

ولا شكَّ أن استقلال المرأة الاقتصادي بسبب العمل خارج البيت هو العامل الأساسي في مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات، ومنها حق الحرية الجنسية، على أن هناك عاملًا آخر لعب دوره أيضًا، وهو اكتشاف وسائل منع الحمل؛ فقد أصبحت العلاقة الجنسية لا تؤدِّي إلى ولادة طفل بغير إرادة الأم.

كما أنَّ حق الأم في الإجهاض أصبح مكفولًا في بعض المجتمعات المتقدمة، وأصبح الاتجاه إلى إباحة الإجهاض يزيد شيئًا فشيئًا في مجتمعات متعدِّدة ومنها الولايات المتحدة الأمريكية، وتساوت النساء في عديد من البلدان من حيث الحصول على إجهاض نظيف وتحت إشراف طبي وبأجر زهيد دون التعرض لاستغلال بعض الأطباء لمثل هذه العملية حين تُؤدَّى من وراء القانون.

وقد اعترفت هذه المجتمعات (للأسباب السابق ذكرها) بحق المرأة في اللذة الجنسية كالرجل، وأدَّى ذلك إلى اهتمام العلماء بالمرأة وبدراسة الأسباب التي تحول بينها وبين الإحساس بلذة الجنس، ولعلَّ أهم هذه الأسباب هو ما يُسمَّى بالبرود الجنسي الذي يصيب النساء بالكبت وضغوط المجتمع.

وقد أجرى كينزي سنة ١٩٥٣م بحثًا بين الزوجات الأمريكيات اللاتي لم يمارسن الجنس قبل الزواج، فاتَّضح له أن ٤٠٪ منهن لم يَعرفْن قمة اللذة في الجنس خلال السنة الأولى من الزواج، وأن ٣٥٪ منهن لم يعرفنها بعد ١٠ سنوات من الزواج.

وقد زاد اهتمام العلماء والباحثين بدراسة البرود الجنسي عند المرأة، وخرجوا بأن الكبت والضغوط الاجتماعية هي السبب الأساسي لهذا البرود، وتعدَّدت البحوث الطبيعية

التي تدرس أثر الكبت والحرمان على المرأة والرجل على السواء، وفي جميع مراحل العمر من الطفولة حتى الشيخوخة، وخرجت هذه البحوث بأن للكبت والحرمان آثارًا شديدة الضرر على جسم الإنسان ونفسه وعقله في مراحل النمو المختلفة منذ الولادة حتى الممات، وأن الضرر على الجهاز العصبي والغددي لا يقلُّ عن الضرر على الجهاز التناسُلي بل يزيد.

إنَّ أيَّ جهاز في الجسم يحتاج إلى تنشيط لينمو، وكذلك الجهاز التناسُلي إذا حُرِمَ من التنشيط حُرِمَ من النمو.

وعلى حسب درجة الحرمان من التنشيط تكون درجة الحرمان من النمو؛ إذا كان الحرمان من التنشيط (أو الكبت) شديدًا أصيب الجهاز التناسُلي بضمور يُسمَّى طبيًّا باسم الضمور التكويني الناشئ من الخمول الوظيفي، ويُصاب مثل هذا الشخص بضعف جنسي، ويظهر هذا الضعف بوضوح على الأشخاص المكبوتين الذين يَمتنعون عن مزاولة أي نشاط جنسي، وحينما يتزوَّجون مُتأخرًا يصابون بتلك الحالة المعروفة طبيًّا باسم «الارتخاء الجنسي الناشئ من الامتناع»، ويؤدِّي هذا الحرمان أو الكبت الشديد إلى تعطيل النمو العقلي، وينتج عن ذلك ضعف في الإدراك والشعور والسلوك، وقد صوَّر الدكتور يوسف حلمي جنينة — أستاذ الأمراض العصبية بجامعة القاهرة — أثر هذا الكبت الجنسي على الجهاز العصبي، وقال: من المعروف أن حرمان المخ من المؤثرات الصوتية أو الضوئية في الصغر يؤدِّي إلى الصمم والبكم أو العمى، فإذا كان المخ يتأثَّر لهذه الدرجة بحرمانه من مثل هذه المؤثرات الخارجية المُكتسَبة فماذا يكون مصيره إذا حُرِمَ من المؤثرات الجنسية الغريزية المتعلِّقة باستمرار الحياة؟ ويقول الدكتور جنينة: إنَّ كثيرًا من التربويين لا يزالون يعتقدون أن الإعلاء المبكر للغرائز أكبر صيانة لها من الجموح والانحراف، وهذا في رأيه اعتقاد خاطئ؛ لأنَّ عملية الإعلاء الجنسي التي تقوم بها المراكز المخية العليا تتطلَّب طاقة جنسية، وهذه الطاقة تتطلَّب مادة، وهذه المادة تتطلب نموًّا ونضجًا جنسيًّا، وهذا النمو الجنسي يتطلب تنشيطًا؛ أي إن الإعلاء لا يحدث في رأيه إلا بعد عملية النمو والنضج الجنسي وما يتطلَّبانه من تنشيط مستمر.

علاقات نفعية

يتَّضح مما سبق أن الضرورة الاقتصادية في المجتمعات الرأسمالية المتقدِّمة قد أباحت للمرأة بعض الحريات والحقوق التي سلبتْها منها من قبلُ ضروريات اقتصادية من نوع آخر.

وكما أدرك الزنجي أن اللون الأسود الذي صبغت به الطبيعة وجهه ليس مبررًا لأن يكون عبدًا للرجل الأبيض، كذلك أدركت المرأة أن الحمل الذي اختصَّتها به الطبيعة ليس مبررًا لأن تكون عبدًا للرجل أو تابعًا أو مملوكًا.

ولكن ليس هذه إلا بضع خطوات على طريق تحرير النساء واستقلالهن ومُساواتهن الحقيقية بالرجل، ولا يزال الطريق وعرًا، تحكمها القيود التي وضعها الرجال الإقطاعيُّون والرأسماليون، بل أقول أيضًا: إنَّ الأقلية من نساء العالم المتقدِّم التي استردَّت بعض حقوقها لا تزال محرومة من كثير من الحقوق التي يَستمتِع بها الرجال، ولا تزال تُواجه مشاكل كثيرة في العمل خارج البيت وداخله وفي تربية الأطفال، وفي الحصول على أجور مُتساوية مع أجور الرجال، وفي الحصول على الوظائف العالية ومناصب الحكم التي يحتكرُها الرجل لنفسه.

ولا تزال كثير من المجتمعات المتقدِّمة تستغلُّ النساء في العمل داخل البيت وخارجه، وقد أثبتت الإحصاءات والبحوث التي أُجْرِيَت في بلاد أوروبا الشرقية والغربية أن النساء العاملات المتزوِّجات أقل فئات المجتمع على الإطلاق حصولًا على وقت للراحة؛ فالمرأة تعمل خارج البيت عدد الساعات نفسها التي يشتغلها الرجل ثم تعود إلى البيت لتخدم زوجها وأطفالها، وقد بدأت الحركات التقدُّمية في العالم تكشف هذا الاستغلال الشديد للنساء، وبدأت بعض البلاد التي تحاول تطبيق الاشتراكية والعدالة أن توفر دور الحضانة وأن تحمل عن المرأة مهمة تربية الأطفال، وأن تخفِّف عنها بعض أعبائها المنزلية بالوسائل المُختلفة، لكن ما من دولة حتى الآن استطاعت أن تحقِّق هذا الأمل لجميع الأمهات، ولا

يَستمتِع بدور الحضانة إلا نسبة قليلة من الأطفال، ولا تزال الأغلبية الساحقة من الأمهات العاملات مُرهَقات بالعمل خارج البيت وداخله، خاصة وأن الرجل في أكثر البلاد تقدمًا لا يزال يعتقد أن أعمال البيت وتربية الأطفال إنما هي مسئولية المرأة وحدها، ويتجاهل الرجل أن المرأة تشاركه أيضًا الإنفاق على الأسرة والأطفال.

حينما كنت في ألمانيا الشرقية في نوفمبر سنة ١٩٧١م عرفت أن الدولة لم تستطع أن توفر من دور الحضانة إلا ما يَكفي ٣٠٪ فقط من أطفال النساء العاملات، وأن هناك مُشكلة كبيرة تواجه أغلبية الأمهات العاملات؛ إذ إن الرجل الألماني لا زال يَعتقد أن أعمال البيت وتربية الأطفال إنما هي مهمَّة المرأة وحدها سواء كانت مُتفرِّغة بالبيت أو عاملة، وقد قال لي أحد أطباء النفس الألماني: إنَّ حل هذه المشكلة يحتاج إلى وقت حتى تتعمَّق المفاهيم الاشتراكية والمساواة في نفوس الرجال الألمان، خاصة وأن ألمانيا تأثرت بالطبع بالحكم النازي، وكان هتلر يقول: إنَّ حياة المرأة تتلخَّص في الأطفال والمطبخ والكنيسة، وإنه ما من صراع يمكن أن يُوجد بين الجنسين طالما أن كل جنس يقوم بالمهام التي فرضتها عليه الطبيعة.

وبهذا كانت أفكار هتلر عن المرأة تتَّفق مع أفكار فرويد وغيره من علماء النازية والاستعمار الرأسمالي.

وعلى هذا فإنَّنا نُدرك أن المرأة العاملة في أكثر البلاد تقدمًا لا تزال مستقلة لجمعها بين عملها داخل وخارج البيت، ولا تزال هذه المشكلة تحول بين المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة، ولا تزال تعوق المرأة عن إثبات قدراتها الحقيقية في العمل والإنتاج.

وقد استطاعت بعض البلاد المتقدمة الإحساس بضخامة هذه المشكلة، وبدأت بعض الآراء في السنوات الأخيرة تُنادي بتغيير المفهوم التقليدي لدور كل من المرأة والرجل في الحياة، ويرتكز هذا الرأي الجديد على أن المرأة تعمل خارج البيت كالرجل؛ ولهذا يجب على الرجل أن يشارك المرأة مسئولياتها داخل البيت وفي تربية الأطفال.

إن المفهوم التقليدي بأن المرأة هي المسئولة عن تربية الأطفال والخدمة بالبيت، وأن الرجل هو المسئول عن العمل خارج البيت؛ إنما هو مفهوم خاطئ نابع من الوضع الاجتماعي الذي وُضِعَت فيه المرأة، ونتَج عن هذا تخلُّف المرأة وعدم قدرتها على النبوغ في الحياة العامة والعلوم والفنون، ونتج عنه أيضًا أطفال لا تَكتمِل صحتهم النفسية؛ فقد أوضحت بعض البحوث والدراسات النفسية أن النزعات العدوانية تكمن في نفوس معظم الأطفال بسبب طغيان شخصية الأم على حياتهم في سنوات عمرهم الأولى في الوقت الذي لا يشعرون فيه بشخصية الأب.

ولا شكَّ أن ظاهرة تعلُّق الطفل الشديد بأمه وكراهيته لأبيه (عقدة أوديب) إنما هي نتيجة عدم التوازن في الارتباط العاطفي بين الطفل ووالديه، والتصاقه الشديد بأمه التي تتفرَّغ لتربيته، وابتعاده عن أبيه الذي يعتقد أن تربية الأطفال إنما هي مسئولية الأم، وقد بدأت بعض البلاد المتقدِّمة تستعين بالرجال والنساء معًا في العمل بدور حضانة الأطفال حتى ينشأ الطفل وأمامه الصورتان معًا: صورة الأب وصورة الأم، وليس من الضروري في هذه المجتمعات أن يكون الأب هو أبوه ذاته صاحب الحيوان المنوي الذي أخصب بيضة الأم، كما أنه ليس من الضروري أيضًا أن تكون أمه هي صاحبة الرحم الذي حمله؛ فقد يكون هذا الأب وهذه الأم أقلَّ كفاءة من غيرهما في تربية الطفل، وإنما من الضروري أن يقوم على تربية الطفل رجال ونساء فهموا معنى التربية الصحيحة.

إنَّ الطفل لا يختار أباه ولا أمه ولكنَّهما يُفْرَضان عليه، فما ذنب الطفل الذي يلده أبوان لا يُحسنان تربيتَه وتغذيته ولا يمنحانه فرص التعليم والنبوغ في الحياة؟

وما ذنب الطفل الذي يلدُه أبوان لم يوقِّعا عقد الزواج؟ إن الطفل — أي طفل — من حقه المطلق أن يعيش ويأكل ويتعلَّم ويعمل دون أي اعتبار لأبويه، هل هما متزوجان أم لا، هل هما منفصلان أم لا، هل هما قادران على العمل والكسب أم لا؛ فالطفل المولود يجب ألا يُحاسَب عن كيفية مجيئه إلى الحياة؛ لأنه لم يشترك في هذه العملية، ولم يكن له يدٌ في أن يأتي إلى هذه الدنيا أو لا يأتي، كل ما في الأمر أنه وُجِدَ في هذه الحياة بغير إرادته وبغير علمه، فليس من العدل ولا من المنطق أن يُحاسَبَ على شيء لم يُرِدْه ولم يعرفه ولم يشترك فيه. إن المجتمعات التي تفرق بين الأطفال وتُعاقبهم على ما حدث قبل ولادتهم إنما هي مجتمعات بلغت أشد أنواع القسوة والظلم؛ لأنها تصدر حكمًا على أبرياء صغار لم يَشتركوا في الخطيئة التي يُحاكمهم عليها المجتمع، وليس في مقدورهم الدفاع عن أنفسهم، ولكن هذه القسوة ليست إلا امتدادًا للقسوة والظلم الواقعين على المرأة التي يَتنكَّر لها الرجل ولا يمنحها شرف الزواج منه، وإلا فكيف يُمكن للمجتمع أن يعاقب الأم غير المتزوجة؟ كيف يمكن أن يعاقبها دون أن ينكر شرعية هذا الطفل الذي تلده ويحرمه من شرف اسم الرجل؟

جاءتني إلى العيادة سيدة شابة في الثلاثين من عمرها، كانت تعاني من آلام والتهاب في الرحم، سألتها عن حياتها فعلمتُ أن أباها كان موظفًا بإحدى المصالح الحكومية، تقدَّم إليه أرمل في الخامسة والخمسين من عمره، تاجر أقمشة ثري، ويمتلك قطعة أرض، لم يتردد الأب في تزويجه لابنته، وكان عمرها في ذلك الوقت ثمانية عشر عامًا، وعاشت هذه الزوجة اثني عشر عامًا مع رجل عجوز غريب عنها، ولم تُنجب منه أي أطفال، كانت

العلاقة الجنسية بينها وبينه تُسبِّب لها حالة نفسية غريبة من الاشمئزاز وتنتهي بحالة جسمية غريبة من ألم في الرحم ورغبة في القيء.

وقالت لي الزوجة في أسًى: كنتُ أحسُّ يا دكتورة في كل ليلة أنني أبيع جسدي كالمومس لهذا العجوز الغريب نظير بضع جنيهات أعطاها لأبي.

فهل يُمكن أن تُسمى هذه العلاقة بين هذا الزوج وزوجته علاقة شريفة؟

هل الشرف أن يُتاجر الأب في ابنته باسم الزواج؟

هل الشرف أن يَشتريَ العجوز بماله فتاة في عمر حفيدته؟

هل الشرف أن تعيش فتاة صغيرة كل هذه الأعوام ضد رغبتها وضد إنسانيتها وتُحْرَم من كل متعة وكل حق حتى متعة الأمومة؟

إذن ليس عقد الزواج هو الذي يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة شريفة، ولا يكفي للمرء أن يُوقِّع عقد الزواج ليُصبِح إنسانًا شريفًا.

إنَّ تحويل المرأة إلى سلعة تُباع وتُشْتَرى باسم الزواج نوع من البغاء المقنع بقناع من الشرعية المزيفة التي تتناقَض مع جوهر الشرف ومعناه السامي؛ فالشرف في جوهره ضد الزيف وضد ملكية إنسان لإنسان أو استغلال إنسان لإنسان، الشرف في جوهره ضد الرق والعبودية وينادي بكرامة الإنسان، ويبني العلاقة بين البشر على أساس من المودة والحب والإرادة المتبادلة والاختيار الحر، الشرف ضد المتاجَرة في الناس سواء كانوا عبيدًا أو نساء؛ وبالتالي فهو ضد الزواج الذي بُنِيَ على المتاجرة وبيع المرأة بالمال، الشرف في جوهره يُحرِّم مثل هذا الزواج ويعدُّه زواجًا غير شرعي؛ لأنه علاقة ضد شرف الإنسان وضد كرامته وضد إرادته الحرة وضد اختياره النابع من شعوره الصادق.

ولكن كم ينسى الناس جوهر الشرف، وكم يتجاهَل المجتمع المعنى الأساسي لزواج رجل بامرأة! وبمرور الزمن يُضيع هذا المعنى ومضمونه الحقيقي ويتمسَّك الناس بالشكل ويُحافظون عليه، فيصبح الشكل بديلًا للمضمون، ويُصبح عقد الزواج أو قطعة ورق بديل الحب والإرادة والكرامة والشرف، وتُصبح إجراءات الزواج أشبه بإجراءات بيع العقارات أو تأجيرها، ويخلو الزواج من مضمونه ومُقوِّماته الإنسانية ويَرتكز على العلاقات التجارية.

ولعل هذا هو السبب في فشل كثير من الزيجات فشلًا علنيًّا بالطلاق أو فشلًا سريًّا بالخيانات الزوجية المتفشية في معظم المجتمعات، أو جدب العلاقة بين الزوجين وبرودها وخلوها من كل بهجة لتَطفح بالمُنغِّصات، ويُصبح نفور الزوج من زوجته أو الزوجة من

زوجها شيئًا عاديًّا، وينتج عن ذلك أن يصبح للإنسان في مثل هذه المجتمعات حياتان مُتناقضتان: حياة زوجية اجتماعية ظاهرية ومزيفة، وحياة حقيقية سرية بعيدة عن المجتمع، ولا يُمكن أن نُنكر ما يُحْدِثه هذا الانقسام في شخصية الإنسان من انحرافات نفسية أو جسدية وفكرية، وما ينتج عنها من مشاكل اجتماعية، وخلق مناخ غير صحي يتربى فيه الأطفال فينشئون بنفوس وشخصيات ضعيفة أو مرضية، ويسيرون بطبيعة الحال في نفس الطريق الذي سار فيه آباؤهم وأمهاتهم.

إنَّ العلاقة بين الرجل والمرأة تفقد شرفها وهدفها السامي إذا بُنِيَت على أسس تجارية أو نفعية، وهذا هو معنى الدعارة؛ فالمرأة المومس هي التي تتلقَّى أجرًا عن علاقتها بالرجل، والرجل المُومس هو الذي يدفع أجرًا عن علاقته بالمرأة.

ولا شك أن الرجل هو الذي يسعى إلى المرأة المومس وهو الذي يَدفع لها؛ أي إنه الطرف الإيجابي في ممارسة الدعارة؛ وبالتالي فإن نصيبه من المسئولية يجب أن يكون أكبر من نصيب المرأة، ومع ذلك فإنَّ المجتمع لا يَدين إلا المرأة وحدها، ولا يستخدم كلمة «مومس» إلا للنساء فقط.

وإذا كان تعريف المومس أنها المرأة التي تقبل العلاقة الجنسية بالرجل لأسباب تجارية ونفعية، فلا بد أن يسريَ هذا التعريف على أيِّ امرأة تقبل العلاقة الجنسية بالرجل لأسباب تجارية ونفعية، وبهذا لا تختلف العلاقة الزوجية القائمة لمصلحة تجارية أو نفعية في جوهرها عن الدعارة، ربما كان هناك اختلاف في الشكل من حيث توقيع عقد الزواج الشَّكلي، وأن الأجر الذي تتلقَّاه الزوجة يختلف في طريقة دفعه عن الأجر الذي تتلقاه المومس، لكن المضمون واحد من حيث افتقاد العلاقتَين للحب الحقيقي، والذي بدونه تُصبح العلاقتان غير شريفتَين.

وقد أثبتَت الإحصاءات والبحوث وجود تناسُب عكسي بين عدد المشتغلين والمشتغلات بالدعارة في مجتمع ما وبين تحرُّر النساء في هذا المجتمع ومُساواتهم بالرجال في الحقوق والواجبات؛ إذ كلما تحرَّرت النساء وحصلن على المساواة انخفض عدد الذين يمارسون الدعارة.

وقد أوشكت بعض البلاد الاشتراكية المتقدِّمة أن تخلو تمامًا من ذلك النوع من النساء الذي يُطْلَق عليه اسم المُومسات؛ فالمرأة في مثل هذه المجتمعات تعلمت وعملت وأصبحت تتقاضى أجرًا عن عملها كالرجل، ولم تَعُد هناك امرأة في حاجة إلى أن تعول نفسها أو أسرتها عن طريق الاتجار بالجسد.

وكم يُصاب السياح المحرومون جنسيًّا بخيبة أمل حين يُسافرون إلى بلد من هذه البلاد فلا يجدون تلك الملاهي والدور الليلية التي تعرض العلاقات الجنسية، ويجوبون الشوارع بحثًا عن مومس واحدة فلا يجدون.

وفي زيارتي لألمانيا الشرقية عام ١٩٧١م لاحظت أنه بمجرد أن تغرب الشمس يتهافَت بعض الرجال العرب على مغادرة برلين الشرقية إلى برلين الغربية، والسبب معروف؛ فالمرأة في برلين الشرقية تعمل كالرجل والمجتمع الاشتراكي لا يتَّخذ من الجنس تجارة أو سلعة، أما في برلين الغربية فهناك حوانيت الجنس التي تعرض الأفلام الجنسية التجارية، وهناك دور اللهو التي تنتشر في المجتمعات الرأسمالية لتستغلَّ النساء المومسات في الإتجار بالجنس وسحب الأموال من السياح الأجانب.

وكم يظهر واضحًا وجليًّا الفرق الكبير بين نظرة كلٍّ من المجتمع الاشتراكي والمجتمع الرأسمالي إلى المرأة. المرأة في المجتمَع الاشتراكي إنسان لها جسم وعقل ونفس كالرجل سواء بسواء، أما في المجتمع الرأسمالي فهي لا تزال مجرَّد ذلك الجسد الذي يُسْتَغَل في الخدمة بالبيت في الإتجار بالجنس.

وليس هذا بالغريب؛ فإن إنجلز وماركس — مؤسِّسَي الفلسفة الاشتراكية في العالم — هما أول مَنْ كشف النقاب عن مظاهر استغلال المرأة وعبوديتها وأسبابها الحقيقية الكامنة في المجتمع الرأسمالي، وقد كتبا في معظم ما صدر لهما من فلسفة وأفكار أن الرأسمالية جعلت المرأة مجرد أداة للإنجاب وسِلعة تباع وتُشْتَرى باسم الزواج.

وقد بدأت بعض البلاد الرأسمالية المتقدمة مثل الولايات المتَّحدة تدفع النساء إلى العودة إلى البيت بعد أن أصبحت حاجة الإنتاج في غِنًى عنهن، وفعلًا أثبتت الإحصاءات في السنوات الأخيرة أن الزوجة الأمريكية أصبحت تترك عملها وتمكُث بالبيت بمجرد إنجابها الطفل الأول.

وكما يقول كارل ديجلر: إن المرأة الأمريكية أصبحت تَنحدِر منذ سنة ١٩٢٠م، وأصبح طموحها يقلُّ في العمل خارج البيت، ويقتصر اهتمامها على الزواج والإنجاب وتربية الأطفال.

وقد تزايد عدد الزوجات والأمهات غير العاملات منذ سنة ١٩٢٠م حتى بلغ ٧٠٪ من النساء عامة. أما في ألمانيا الشرقية فإن ٨١٫٥٪ من النساء عاملات أي ١٨٫٥٪ من النساء غير عاملات، كما أن أغلب النساء الأمريكيات العاملات يشغلن وظائف صغيرة لا تحتاج إلى مهارات فنية عالية مثل أعمال الخدمة والسكرتارية والأعمال الصناعية التي لا تتطلَّب خبرة أو مهارة.

ويقول كارل ديجلر: إن المرأة الأمريكية لا تتواجد في الأعمال الفنية والوظائف العالية إلا بنسب قليلة جدًّا. إن جملة عدد النساء الأمريكيات العاملات في مجال الطب والقانون والهندسة والبحث العلمي مجتمعة لا يزيد عن ٧٪ من عدد النساء العاملات حسب إحصاء ١٩٥٠م، وأن ٦٪ فقط من الأطباء الأمريكيين نساء، ومن المحامين والقضاة ٤٪ فقط نساء، وعلى عكس ذلك في الاتحاد السوفييتي فإن ٧٥٪ من الأطباء السوفييت نساء.

لقد سافرت إلى الاتحاد السوفياتي في يوليو ١٩٦٩م، وزرت مُدنه وقراه شمالًا وجنوبًا من لينينجراد إلى إليانوس إلى موسكو إلى ألماتا إلى طشقند، وشهدت بعيني كثرة النساء العاملات في كافة المجالات العلمية والطبية، واحتلال النساء لكثير من المناصب القيادية سواء في العلم أو في الحياة العامة والسياسة، وقد رأيت الشيء نفسه في زيارتي لألمانيا الشرقية. إنَّ نسبة عدد القضاة النساء في ألمانيا الشرقية هي ٣٤٪، ومن أعضاء البرلمان البالغ عددهم ٥٠٠ عضو هناك ١٥٩ امرأة، على حين في ألمانيا الغربية ٣٤ امرأة من ٥١٨ عضوًا بالبرلمان.

ومن المعروف أن الحياة السياسية الأمريكية لا نصيبَ للمرأة فيها إلا فيما ندر.

وتقول أليس روزي: إنه إذا حدث وأصيبت أمٌّ أمريكية بالطموح الطبيعي لها كإنسانة، وأرادت أن تمارس عملًا خارج البيت فإن العلماء النفسانيين والاجتماعيين الأمريكيِّين يَنصحونها بالبقاء في البيت مع أطفالها وقايةً لهم من الضرر النفسي الذي يحدث بسبب غياب الأم، ويُسمونه الحرمان من الأمومة، أما الحرمان من الأبوة الذي هو ظاهرة شائعة وعامة — حيث يعمل الأب طول النهار بعيدًا عن أطفاله — فلا أحد من هؤلاء الاجتماعيين أو النفسانيين يَذكُره أو يُنبِّه إلى ضرره.

إن المجتمع الرأسمالي يدَّعي ويُهوِّل من الضرر النفسي الذي يمكن أن يحدث للطفل إذا خرجت أمه للعمل حتى يُقيِّد هذه الأم بالبيت وتظلَّ مُسْتَغَلَّة.

وقد كشف علماء المجتمع الجدد المتقدمون عن خطأ هذه الأفكار النفسية والعلمية التي لم تكن تظهر إلا للتمويه وإخفاق الحقائق الفعلية، ويقول هؤلاء العلماء الجدد: إنَّ التاريخ البشري في عهوده الأولى قبل التاريخ وفي القرون الوسطى وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يعرف شيئًا اسمه الأمومة المتفرِّغة طول الوقت مثلما حدث في قرننا العشرين بالنسبة لأمهات الطبقة المتوسطة، كانت الأمهات منشغلات بأعمال أخرى غير الالتصاق بأطفالهن طول النهار، وكان الأطفال يشتركون في الأعمال خارج البيت وداخله، وكانت صحتهم النفسية أفضل من صحة الأطفال النفسية في مجتمعنا الحديث، ولم تكن

الأم في تلك الأزمنة كالأم في العالم الحديث تعاني الملل والوحدة وتُواجه عشر ساعات في النهار تقضيها وحدها مع أطفالها.

ولعلَّ هذا يدلُّنا على أن سيطرة الرجل على المرأة منذ سلب منها حقها الطبيعي في الحياة كانت تَتزايَد وتنمو بنموِّ المجتمع الاستغلالي، وتتَّخذ أشكالًا ومظاهر مختلفة بعضها يختفي وراء ستار من التقدُّم المزيَّف والمدنية الحديثة، كأن يَسمح للمرأة أن تُدخِّن وأن تُعريَ ساقيها وفخذيها في الميني جيب، وبعضها يكون سافرًا واضحًا يكشف سيطرة الرجل على المرأة مثل ما يحدث حين يدفع الرجل المرأة إلى البيت سواء بالقوة والإجبار أو بالإقناع والتمويه.

ولعلَّ السبب الحقيقي الذي دفع معظم النساء في العالم إلى الاقتناع بالبقاء في البيت هو تلك النظريات العلمية الخاطئة التي ادعت أن المرأة حين تخرج إلى العمل وتترك أطفالها تُسبِّب لهم ضررًا نفسيًّا بالغًا، وكذلك أيضًا تلك النظريات التي كانت تقنع المرأة أن تحقيق ذاتها كأنثى ليس إلا عن طريق الإنجاب وتربية الأطفال.

وقد أثبتَت البحوث العِلمية خطأ هذه المفاهيم جميعًا، بل وكشف عن أن الرجل استغلَّ الأطفال ليربط المرأة بهم في البيت، وأثبتت بحوث بورشينال روزمان أن نمو الأطفال لا يتأثَّر بغياب الأم في العمل سواء حدث هذا الغياب في الثلاث سنين الأولى من عمر الطفل أو بعد ذلك.

وكان من نتيجة هذا التمويه أنَّ الأم اعتقدت أن تربية الأطفال إنما هي مسئوليتها وحدها، وحينما تفكِّر في العمل تشعر بالذنب؛ لأنها قد تتسبَّب في ضرر أطفالها، وحينما تمتلك شيئًا من الطموح لتعمل خارج البيت يُواجهها الرجل بالسؤال: والأطفال؟ فإذا بها تصمُت وتعجز عن الرد، ويُمكن للمرأة الناضجة الواعية أن ترد الآن على هذا السؤال قائلة: إن تفرُّغ الأم لأطفالها مضر لها وللأطفال، وإن مسئولية الأبوة كمسئولية الأمومة تمامًا لا تقلُّ عنها شيئًا، ولهذا فليس على الرجل أن يسأل الأم وحدها عن الأطفال وإنما لا بد أن يسأل نفسه بالمثل أيضًا.

وقد ثبَت علميًّا أن أفضل وسيلة لتربية الأطفال هي وسط أطفال آخرين في دار للأطفال تضمُّ عددًا من الرجال والنساء المتخصِّصين في التربية الصحيحة، وأن يليَ ذلك في الأفضلية هو اشتراك الأب والأم بالتساوي في رعاية الأطفال وتقسيم الوقت بينهما بالتساوي في رعايتهم والبقاء معهم في البيت.

إنَّ أسس التربية النفسية الحديثة هي أن يتوازن لدى الطفل رؤيته لأبيه وأمه، وأن يتساوى عنده الإحساس بالأم والأب سواء في الرعاية أو الواجب والحنان.

لكن المجتمع الرأسمالي يُحرِّف الحقائق العلمية ليضع أمام خروج المرأة للعمل العراقيل المادية والنفسية، ثم يَفرض عليها في النهاية إذا أصرَّت على العمل أن تختار بين عملها خارج البيت وعملها داخل البيت، ويُلوِّح لها بالخطر والإثم لو اختارت العمل خارج البيت.

وقد أصبحت المرأة الواعية الآن تُدرك أساليب المجتمع الاستغلالي، وأصبحت لا تشعر بالتردُّد أو الحيرة أو الشعور بالذَّنب حين تختار لنفسها أن تعمل خارج البيت؛ فقد أدركت أن هذا العمل هو حياتها وهو بقاؤها كإنسانة، وهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذاتها، كما أدركت معنى الأمومة الصحيحة ومسئولياتها، ومعنى الأبوَّة الصحيحة ومسئولياتها.

ولا شكَّ أن الرجل لا يواجه مثل هذه المشكلة أبدًا في حياته، ولا يُخيره المجتمَع بين عمله خارج البيت أو داخل البيت؛ ذلك أن المجتمع ينظر إلى أن الرجل غير مسئول عن كل ما هو داخل البيت من خدمات وأعمال، وإنما هي مسئولية المرأة وحدها.

وتُواجه المرأة — بالإضافة إلى ذلك — مشاكل عدة بعد أن تَنجح في اتخاذ قرار بالعمل خارج البيت، فتلقى مِن المُعوقات في المجتمع ما يحول بينها وبين ممارسة العمل الذي تختاره أو المجال الذي تحبُّ أن تنبغ فيه، ثمَّ إن المشاكل الزوجية ومشاكل البيت تحول بينها وبين إتقان عملها والنبوغ فيه، وبهذا يضع المجتمع العراقيل أمام المرأة في كل خطوة تتَّخذها نحو العمل، بالإضافة إلى هضم حقوقها في العمل وبَتْرِ أجرها بحيث يصلُ إلى نصف أجر الرجل عن نفس العمل في كثير من الأحيان.

لكن ذلك يجب ألا يُثبِّط همة المرأة وإصرارها على العمل خارج البيت؛ فالبيت هو مقبرة المرأة، وهو ذلُّها وهوانها وعبوديتها؛ لأنَّ البيت معناه أن تُحْرَمَ من خبرات الحياة التي تنضجها وتُحقِّق ذاتها كإنسانة، كما أن البيت معناه أيضًا أنها لا تعمل ولا تحصل على إيراد؛ وبالتالي فإنها تعيش عالةً على الرجل.

ولا يُمكن للمرأة التي تحتاج إلى الإعانة أن تتحرر من علاقتها النفعية بالرجل، ولا بد لزواجها منه أن يرتكز على المصلحة الاقتصادية والاجتماعية والحماية والإعالة وغير ذلك من الأسباب التي تدرج هذه العلاقة الزوجية ضمن العلاقات التجارية حيث تُدرج الدعارة أيضًا.

السيد والعبد

إنَّ العالم الذي نعيش فيه يتميَّز بالسرعة الشديدة في التقدم العلمي والبطء الشديد في التقدم الإنساني، وهكذا تزداد الهوَّة بين النضج العقلي والمادي من ناحية، وبين النضج الاجتماعي والإنساني من الناحية الأخرى.

ولم تكن الحَربان العالَميتان السابقتان أو الحروب التي لا تزال تشتغل في مناطق مُتعدِّدة من العالم وتُهدِّد بحرب عالَمية ثالثة إلا نتيجة مجتمع بشري نما عقله وعلمه وتضاءل وجدانه وإنسانيته، مجتمع بشري يتنافَس على الطمع والمِلكية وامتلاك أقصى ما يستطيع، مُجتمع غلبت فيه القيم التجارية على القيم الإنسانية، وأصبحت القيمة الاجتماعية للإنسان تَعتمِد على مقدار ما «يملك» لا مقدار ما «يكون».

الملكية هي سبب العدوانية والأنانية في عالَمنا الراهن، وهي الصخرة الكبيرة التي تقف في سبيل التقدم الإنساني، والإنسان قد يمتلك الأرض أو المباني أو أدوات الإنتاج أو أي شيء من الأشياء، ولكن أقسى أنواع المِلكية هو مِلكية الإنسان للإنسان.

وقد عرفنا في التاريخ كيف امتلك الأسياد الرقيق، وكان العبد يُباع ويُشتَرى بالمال، وحين يشتري السيد عبدًا يصبح هذا العبد خادمًا لهذا السيد بغير أجر، لا يستطيع أن يترك خدمته إلا إذا أطلق السيد سراحه أو باعه في سوق الرقيق لسيد آخر، وكان من واجب العبد الطاعة المطلقة، ومن حق السيد أن يَفعل بهذا العبد ما يشاء دون أن يحاسبه أحد، كأن يستأصل بالمشرط خصيتي العبد فيصبح رجلًا بلا ذكورة، ويخدم نساء سيده دن أن يخشى السيد منه شيئًا.

ولا تختلف ملكية الرجل للمرأة كثيرًا عن ملكية السيد للعبد؛ فالرجل يشتري المرأة بمقدم الصداق، وينصُّ عقد الزواج في أول بنوده على أن الزوجة ملك لزوجها واجبها

الطاعة المُطلقة، وتخدم الزوجة في بيت زوجها بغير أجر؛ فإن عصت أو تذمَّرت أو مرضت أو وهنت باعها الرجل بحقه المطلق في الطلاق.

وأودُّ أن أنقل هنا نص أحد مواد قانون الزواج في مجتمعنا، وهو نص المادة ٦٧: «لا تجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها بدون حق، أو اضطرت إلى ذلك بسبب ليس من قبل الزوج، كما لا تَستحِق النفقة إذا حُبِسَت ولو بغير حق أو اعتُقلت أو غُصِبَت أو ارتدت أو منعها أولياؤها، أو كانت في حالة لا يُمكن الانتفاع بها كزوجة.»

ولا شكَّ أن هذا النص دليل واضح على نوع العلاقة بين الزوج والزوجة التي تُشبه العلاقة بين السيد والعبد، بل إنَّ العبد كان في ظل تقاليد الرقيق يعالَج إذا مرض ويتحمل سيده العلاج حتى يُشْفَى، أما الزوجة فليس لها هذا الحق إذا مرضَت ولم تَستطع أن تُلبي رغبة زوجها الجنسية فمن حقِّه أن يَلفظها ويُلقي بها خارج بيته وتسقط عنها النفقة، وعليها أن تتجوَّل في الشوارع أو تتسوَّل، أو تتحوَّل إلى مومس، كذلك إذا حُبِسَت هذه الزوجة ولو بغير حق أو اعتدى عليها رجل واغتصبها فمن حق زوجها أن يطردها وتسقط عنها النفقة أيضًا.

كذلك إذا دفعت الزوجة شبابها من أجل زوجها وأطفالها، ثم استُهلِكَت أو أُرهِقَت أو مرضت أو عجزت عن الوفاء بكل هذه الالتزامات وأصبحت في حال لا يُمكن الانتفاع بها كزوجة فمن حق زوجها أن يلفظها كالنواة.

إن تعبير «لا يُمكن الانتفاع بها كزوجة» يدلُّ على أن العلاقة الزوجية في أساسها وجوهرها قائمة على انتفاع الرجل من المرأة واستغلاله لها استغلالًا بشعًا، أشد بشاعة من استغلال المالك للأجير أو السيد للعبد الذي كان يَتحرَّج من بيع العبد وهو مريض، أما الزوجة فهي حين تمرَض (بنَص قانون الزواج) تعود إلى أهلها ليتولَّوا علاجها؛ لأن زوجها غير مسئول عن هذا العلاج.

ثم إن عبارة «تسليم نفسها» تدلُّ على نوع العلاقة بين الرجل والمرأة، وأن المرأة هي التي تُسلِّم نفسها والرجل هو الذي يتسلَّم هذه النفس، وكأنها شيء من الأشياء أو بضاعة من البضائع.

وحينما تُطلَّق المرأة بسبب أو بغير سبب فإنَّ ثمنها يَنخفِض في سوق الزواج كأيِّ سلعة ينخفض ثمنها إذا ما استُعْمِلَت من قبل.

وفي بحث للدكتور سيد عويس المُستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عن أهم العوامل التي تُواجه تنظيم النسل في مجتمعنا قال: إنَّ من أهم هذه العوامل انخفاض مكانة المرأة المصرية للأسباب الآتية:

- حيث إن الأسرة المصرية هي أسرة أبوية وليست أسرة أموية؛ ومن ثم فالذكور هم المسئولون وانتساب الأبناء إلى أبيهم وليس إلى أمهم.
- وحيث تُعدُّ الأنثى لتكون «ست بيت»؛ ومن ثم فأدوارُها الاجتماعية خارج أسرتها محدودة للغاية «البنت مسيرها البيت» مثل شعبي.
- وحيث يُحرم على الأنثى المصرية بعض الأعمال الخطيرة ويقتصر العمل فيها على الذكور (مثل أعمال الحاكم والمشرع ورجل الدين والقاضي والجندي ورجل الشرطة مثلًا).
- وحيث يكون حق الأنثى المصرية في سنٍّ معينة في أن تَنتخِب وتُنتخَب حقًّا اختياريًّا.
- وحيث تتزوج المرأة لخدمة الذكر الزوج ومفهوم الخدمة هنا يتضمن كل الأدوار التي يفترض أن تقوم بها الزوجة مثل دور العمل في البيت ودور أم الأولاد ودور العشيقة ... إلخ.
- وحيث تَنخفِض مكانة الأنثى المصرية إذا تزوَّج زوجها بغيرها.
- وحيث تَنخفِض مكانة الأنثى المصرية إذا لم تتزوَّج أو «تبور».
- وحيث تُواجه الأنثى المصرية تقلبات ويتفاوت مهرُها حسب كونها «بكرًا» أو «عَزبة»، فإذا كانت بكرًا فهي أغلى سعرًا، وإذا كانت مطلقة أو عزبة فهي أرخص سعرًا، ويا ويل الأنثى البالغة التي لم تتزوج (بارَتْ)؛ فإن سعرَها يكون في الحضيض.
- وحيث تُرغَم الأنثى المصرية على الزواج في كثير من الأحيان.
- وحيث تكون الزوجة في نظر الذكر الزوج مجرد «متاع».
- وحيث تعيش الزوجة في كنَف زوجها في ظل المعاملة السيئة التي لا ترقى إلى المعاملة الرشيدة. فهي تَصبر على المكاره (الزواج بأخرى) وتصبر على ألوان الضيم (منها الشتم والضرب) من أجل لقمة العيش أو من أجل أن يحميها رجل .. (ظل راجل ولا ظل حيطة) مثل شعبي.
- وحيث تعيش الزوجة في وجل وخوف من شبح «الضرة».
- وحيث تُطَلَّق الأنثى المصرية؛ لأنها لا تُنجِب الذكور، أو تُطَلَّق أحيانًا لأتفه الأسباب.

- وحيث لا يُستحب إذاعة اسم الأنثى المصرية إذا كانت زوجة أو أمًّا.
- وحيث إن الابن الذكر مفضَّل عند الأب والأم معًا.
- وحيث إن المرأة المصرية إذا سارت في الطريق مع أحد رجال الأسرة تسير من ورائه.
- وحيث يستخدم مفهوم «امرأة» «مرة» استخدامًا سيئًا، ويُعتبر سبًّا وشتيمة إذا وُجِّه إلى ذكر.
- وحيث لا تمارس الأنثى المتزوِّجة حق الطلاق إلا إذا كانت العصمة بيدها وهذا نادر.
- وحيث تُخطَب الأنثى المصرية لحسبها ونسبها.
- وحيث يحرم على الإناث المصريات في سن معينة وفي ظروف معينة الاختلاط بالذكور.
- وحيث يُنظر إلى النساء على أنهن ناقصات عقل ودين.
- وحيث نجد أن نسبة العاملات الماهرات من الإناث المصريات نسبة ضئيلة.
- وحيث تعمل الإناث المصريات الماهرات منهن وغير الماهرات في ظل سيطرة الذكر المصري في أغلب الأحيان، وإذا اعتبرنا أن الإناث المصريات الريفيات يعملن فإنهن في ظروف بائسة يسيطر عليها الذكور كذلك.
- وحيث ترث الأنثى أقل من الذكر، ولا تمنع الأنثى الأقارب من غير المقرَّبين من الميراث.
- وحيث إن نسبة الأمية بين الإناث نسبة مُرتفِعة للغاية قد تصل في بعض القرى المصرية في بعض الأحيان إلى ١٠٠٪ أو تقلُّ عن ذلك قليلًا.

وكما كان العبيد يُخْصَون لتُفْرَض عليهم العفة وهم يخدمون حريم السيد فقد كانت الإناث في مجتمعنا وفي كثير من المجتمعات الأخرى تُجْرَى لهنَّ عملية جراحية أشبه ما تكون بالإخصاء لفرض العفة عليهن.

فما إن تبلغ البنت التاسعة أو العاشرة من عمرها وقبل أن تبدأ مرحلة البلوغ تأتي تلك المرأة المسماة بـ «الداية» وتمسك الطفلة من ساقيها كما تمسك الدجاجة قبل الذبح، وتستأصل بالموسى «البظر»، وقد عُرِفَت هذه العملية بختان البنات، وكانت شائعة إلى عهد قريب في مجتمعنا ولا تزال بعض الأسر حتى الآن تحرص على ختان بناتها.

وكثيرًا ما استُدْعِيتُ لإنقاذ حياة البنات إثر هذه العملية البشعة؛ فقد كانت الداية لجهلها ولاعتقادها أنها إذا ما أوغلت بالموسى في لحم الفتاة واستأصلت البظر من جذوره

فإن ذلك يضمن عفَّة الفتاة وزهدها الأكبر في الجنس، وكان الموسى الحاد يُحْدِث نزفًا غزيرًا، وفي بعض الأحيان تفقد الفتاة حياتها قبل أن تُنْقَذ، ولم تكن الداية تعرف شيئًا عن التعقيم بطبيعة الحال، وكان الموسى القذر يُسبِّب الالتهابات في معظم الحالات، أما الصدمة النفسية لهذه العملية المهينة على الطفلة الصغيرة فقد كانت بالغةً لا شك، وتظل صورة هذه المذبحة الصغيرة راسخة في ذاكرة الطفلة مما يسبِّب لها في حياتها الزوجية مشاكل كثيرة أحدها ذلك البرود الجنسي الذي ينعكِس على الرجل بالانحرافات الجنسية وإدمان الحشيش.

وهناك مجتمعات أخرى أَخْصَت نساءها بعمليات أخرى أكثر قسوة من عملية استئصال البظر. لقد فوجئت وأنا طبيبة حديثة التخرج سنة ١٩٥٥م حين فحصت سيدة سودانية لأول مرة فإذا جميع أعضائها التناسلية الخارجية قد استؤصِلَت تمامًا، ولم يبقَ مكانها إلا جرح قديم طويل تتوسطه فتحة صغيرة مستديرة لخروج الحيض، ومن الطبيعي أن مثل هذه الفتحة الصغيرة تتمزق عند ولادة أول طفل وتتعرَّض المرأة للنزيف الشديد أو المضاعفات الخطيرة.

وهناك في التاريخ وفي مختلف العصور والمجتمعات أمثلة عديدة متنوعة تُبيِّن لنا كيف أن المجتمع الرجالي كان يستبيح لنفسه تشويه جسم المرأة ونفسها باسم العفة، وقد عرف التاريخ «حزام العفة»، وهو حزام من المعدن يُغطي أعضاء المرأة التناسلية وبه ثقبان: أحدهما للبول والآخر للبراز عند فتحتَي البول والشرج.

ويقول «ديزموند موريس» في كتابه «القرد العاري»: إنَّ التاريخ عرف عهدًا كانت أعضاء البنات التناسلية الخارجية تُغْلَق قبل الزواج بواسطة دبابيس معدنية أو بالحياكة بالإبرة والفتلة، وكتب ديزموند موريس يصِف رجلًا صنع في شفرتي امرأته الخارجيتَين ثقبَين أدخل فيهما قفلًا حديديًّا يغلقه بالمفتاح بعد كل عملية جنسية كما يغلق دكانه.

وقد يندهِش بعض الناس لهذه الحقائق التاريخية، ولكني أعتقد أن دهشتهم تقلُّ كثيرًا حين يذكرون أن التاريخ عرف عهدًا استباح فيه المجتمع دفن البنات وهن على قيد الحياة.

كان كل ذلك يحدث باسم العفة والأخلاق؛ فالمجتمع الذي يستأصِل بظر البنت يعتقد أن البظر هو أكثر أعضاء المرأة إحساسًا بلذة الجنس؛ وبالتالي فإن استئصال البظر يُفقد المرأة الكثير من هذا الإحساس فتصبح أكثر زهدًا في الجنس ويضمن الرجل عفتها، ألا تشبه هذه العملية في مضمونها وجوهرها عملية إخصاء العبيد؟ أليس هذا دليلًا على أن الرجل امتلك المرأة كما امتلك العبد؟ لكن امتلاك الرقيق حُرِّم بحكم القانون، أما النساء فلا تزال الأغلبية الساحقة منهن رقيقًا بحكم تقاليد الزواج والطلاق والطاعة.

وفي الوقت الذي يفرض فيه المجتمع العفة على المرأة ويُعقمها ويقتل رغباتها فهو يترك الرجل حرًّا، لا يفرض عليه العفة، بل يُشجعه على الاستمتاع بكل رغباته فيُبدِّل من الزوجات ما يشاء، ويشرد من الأطفال ما يشاء، ويضمن له النظام والقانون الحماية المدنية والشرعية والأخلاقية.

والويل للمرأة لو أنها استجابت لإغراءات الرجل ومحاولاته غير اليائسة لإيقاعها في الشَّرَك، وعليها أن تقمع مشاعرها وتكبتها وتقاوم مطاردة الرجل وإغراءه ووعوده، وأصبحت المرأة ذاتها تتخلَّى عن قيمة نفسها كإنسانة وعن صدق مشاعرها لتضمن الشرف الاجتماعي الظاهري، وتعلَّمت المرأة الزيف وعرفت كيف تعامل المجتمع كما يعاملها، تعلمت كيف تُرضي الرجل وتمارس معه الجنس دون أن تفقد عذريتها، تعلَّمت كيف تبيع نفسها بعقد الزواج وتكبت حبها الحقيقي إلى الأبد أو تمارسه في الخفاء.

جاءتني إلى العيادة — وهي في أزمة نفسية — فتاة في العشرين أحبها أحد أقاربها الذي كان يتردَّد على بيت أسرتها، شعرت نحوه بالحب ووعدها الشاب بالزواج بعد أن يعثر على شقة، وفي يوم زارها الشاب في البيت وكانت وحدها، غلبته مشاعرُه وحاول الاتصال بها لكنها تذكرت أنهما لم يتزوَّجا بعد فامتنعت، فقال لها الشاب في احتجاج: إن الحب الصادق هو الذي يجب أن يجمعهما معًا بإرادتهما وليس بتصريح من المأذون وإرادته، واقتنعت الفتاة بكلامه وكانت تحبه بصدق فعلًا وحدث بينهما اللقاء الجنسي، واضطربت الفتاة لكن الشاب طمأنها إلى أنه سيتزوَّجها، لكنه لم يتزوجها كما يحدث في كثير من مثل هذه الحالات، وقال لها في النهاية إنه لن يتزوج فتاة سلَّمت نفسها لشابٍّ قبل الزواج وإن كان هو هذا الشاب.

أصيبت الفتاة بالصدمة النفسية التي تُصيب الفتيات في مثل هذه الظروف، وكان من الممكن أن تفقد ثقتها في الرجال وتُعاملهم بمثل ما عوملت به «الكذب والخداع»، لكنها كانت فتاة قوية النفس والشخصية تؤمن بذاتها وتَحترم مشاعرها وصدقها، وساعدها على ذلك أنها كانت تعمل وفي غير حاجة إلى أن يعولها رجل، وحينما تقدَّم إليها شابٌّ ليتزوَّجها وشعرت أنها تميل إليه أفضت إليه بسرِّها قبل أن يتزوَّجها لتبدأ معه حياة أساسها الصدق والشرف، لكن الشاب لم يحترم صدقها، فسرعان ما تركها، وقلت لها ألا تتنازل عن صدقها بأي ثمن وإن كان هو الزواج، وعليها أن تبحث عن الرجل الذي يرتفع بفكره ومشاعره عن التقاليد الشكلية ويحترم صدقها وشخصيتها.

إنَّ حق الرجل في اللذة الجنسية مقدَّس في نظر المجتمع، ويجب أن يناله في التو واللحظة حين يطلبه، أما المرأة فواجبها المقدَّس أن تُلبي رغبة الرجل متى شاء، وليس من حقها أن تشعر باللذة، وإذا حدَث وشعرت فيجب أن تخفي هذا الشعور.

وأعضاء الرجل الجنسية في نظر المجتمع لها قيمتها واحترامها، وكفاءة الرجل الجنسية لها قيمتها واحترامها، أما المرأة فإنها قد تعيش في برود جنسي طول حياتها بسبب الكبت، فلا يقلق المجتمع ولا يهتم. ولا تحظى أعضاء المرأة الجنسية في المجتمع بالاحترام، بل لقد استعار المجتمع أسماء بعض هذه الأعضاء لتكون نعوت تحقير وسباب.

وكما يحترم المجتمع أعضاء الرجل فإنه يحترم ما تُفرزه هذه الأعضاء، وينظر المجتمع إلى السائل المنوي نظرة احترام بالغة، ويعدُّه إكسير الحياة وخلاصتها الخالصة، ولا شك أن هذا السائل يحتوي على الحيوانات المنوية التي يتَّحد الواحد منها ببيضة المرأة ليحدث الجنين.

ورغم أن الحيوان المنوي والبيضة يتساويان في قيمتهما لتكوين الجنين، إلا أن المجتمع لا يساوي بينهما من حيث القيمة والأهمية والاحترام أسوة بعدم المساواة في كل ما يتعلق بالرجل أو المرأة، وفي الوقت الذي يبجل فيه المجتمع السائل المنوي ويُقدِّسه فإنه ينظر إلى الطمث كدم فاسد ونجاسة، مع أن هذا الطمث يحتوي في كل مرة على البيضة الوحيدة التي يُفرزها أحد المبيضين مرة واحدة في الشهر الواحد، كما أنه ليس هناك ما يُسمى بالدم الفاسد؛ لأن دم الإنسان هو دم الإنسان، سواء كان في رأسه، في كبده، أو في أعضائه التناسلية، وإذا ارتفعت نسبة ثاني أكسيد الكربون في الدم الذي يجري في الأوردة، فليس معنى ذلك أنه دم فاسد ولكنه يسمى علميًّا بالدم غير المؤكسَد لتفرقته من الدم المؤكسد الذي يجري في الشرايين ويحتوي على نسبة أعلى من الأكسجين.

ولا شكَّ أن الدم هو أثمن ما في جسم الإنسان، وهو الذي يمكن أن يسمى حقًّا بإكسير الحياة؛ لأن عن طريقه يتغذَّى الإنسان ويتجدَّد وبغيره لا يستطيع أن يحيا.

وبرغم أن الدم الذي قد يسيل من جرح في العنق أو الإصبع هو نفسه الدم الذي يسيل من رحم المرأة أثناء الطمث، بالإضافة إلى احتواء الأخير على البيضة، إلا أنَّ الدم الأول يعدُّ دمًا بكل ما للدم من قيمة، لكن دم الطمث يعدُّ شيئًا فاسدًا أو نجسًا، ويعتقد بعض الرجال أن مجرد مصافحتهم للمرأة الحائض يُفسد طهارتهم أو وضوءهم، ويرجع الاعتقاد السائد بنجاسة المرأة أثناء الحيض إلى ارتباط الدم في المجتمعات البدائية بالكوارث والجروح وهجوم الحيوانات المفترسة والموت، كما أنه من رواسب الخوف القديم الذي كان يشعر به الرجل نحو مظاهر إخصاب المرأة.

ويفرز السائل المنوي كل يوم عدة مرات، وفي كل مرة يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية يخصب واحد منها فقط البيضة في حالة حدوث العملية الجنسية مع المرأة وتموت بقية الملايين الأخرى، وفي غير العلاقة بالمرأة فإنَّ هذه الملايين من الحيوانات المنوية تُقْذَف إلى الخارج ولا تخصِّب شيئًا كما في حالات الاحتلام والعادة السرية وغيرهما.

وقد نشأت فكرة تخويف المراهقين الذكور من العادة السرية أو كثرة الاحتلام بسبب ارتفاع قيمة السائل المنوي في نظر المجتمع، وأن فقدان هذا السائل الثمين يُهلك صحة المراهق.

وقد اتضح خطأ هذه الفكرة؛ فإن فقدان هذا السائل بسبب العادة السرية أو الاحتلام لا يحرم الجسم شيئًا هامًّا؛ فإن هرمون الذكورة الذي تفرزه الخصيتان والذي هو الشيء الهام لا يُقْذَف إلى الخارج مع السائل المنوي، ولكنه يعود مباشرة إلى الدم، وعلى هذا فإن فقدان السائل المنوي بسبب تكرار الاستحلام أو العادة السرية لا يسبب أي ضرر للإنسان، بل إنه مفيد وصحي.

ويتمثَّل عدم المساواة بين الرجل والمرأة بوضوح في تلك التفرقة الكبيرة بينهما بالنسبة لموضوع تحديد النسل.

إن المجتمع في جميع أنحاء العالم يُحمِّل النساء العبء الأكبر، ويُشجِّعهن على ابتلاع تلك الكميات الكبيرة من حبوب منع الحمل دون أن يهتمَّ بأثرها على صحة المرأة جسميًّا أو نفسيًّا، كل ما يهمه هو أن يجد حلًّا لمشكلة الزيادة السكانية التي تُهدِّده اقتصاديًّا، وقد انقضت سنوات كثيرة منذ استخدام النساء لهذه الحبوب قبل أن يكتشف العلماء أنها تصيب ٣٠٪ من النساء بالاكتئاب، بالإضافة إلى بعض المضاعفات العضوية أو النفسية الأخرى التي قد تحدث لعدد قليل أو كثير من النساء.

أما الرجل فإنه لا يحمل من هذا العبء شيئًا أو شيئًا قليلًا في بعض الحالات، وحين يقترح أحد بأن يتساوى الرجل مع المرأة في مسئولية وعبء تحديد النسل، وأن يبحث العلماء عن وسائل تحديد النسل لدى الرجل كما يبحثون عنها لدى المرأة ترتفِع الأصوات العالية بالاحتجاج، وكم من معارضات قامت في كثير من المجتمعات ضد عملية التعقيم السطحية للرجل، على حين تقابل عملية تعقيم النساء الأكثر خطورة وتعقيدًا بالتشجيع أو الرضا أو على الأقل بالسكوت وعدم الاعتراض.

قيم مناقضة

يضع المجتمع النساء في تناقض حاد؛ ففي الوقت الذي يُجْرِي لهن عمليات جسمية ونفسية ليفرض عليهن العفَّة ويعدم إحساسهن بمُتعة الجنس يطالبهن بإمتاع أزواجهن وإرضاء شهواتهم وقتما شاءوا وكيفما شاءوا، فإذا عجزت الزوجة عن أن تُلبي رغبة زوجها طلقها أو تزوَّج غيرها أو هجرها وخرج ليُعربد خارج البيت مع المومسات أو غيرهن من النساء.

وفي الوقت الذي يُبيح فيه المجتمع — لأسباب تجارية واقتصادية إذاعة الأغاني الملتهبة بالشبق والتأوهات وعرض الأفلام والرقصات الجنسية المثيرة للغرائز — يحرم على البنات والنساء التأثُّر بهذا السَّيل الذي لا ينقطع ليل نهار من أجهزة الراديو والتليفزيون والسينما والمسارح وغيرها من وسائل إعلامية.

وإذا كان المجتمع حريصًا على العفة التي يدَّعيها، وإذا كان المجتمع حريصًا على الحفاظ على القوانين الأخلاقية التي يتظاهر بالحفاظ عليها من أجل الشرف، فكيف يُفسِّر المجتمع تنازله عن هذه القيم الأخلاقية بإباحته عرض أجساد النساء عارية في الأفلام والرقصات، وعرض أجساد النساء عاريات فوق المجلات المصورة وفوق إعلانات زجاجات الخمر وغيرها من الإعلانات؟ أليس هذا دليلًا على أن الذي يحرك المجتمع حقيقة ليست هي القيم الأخلاقية، وإنما هي القيم التجارية ومنطق الربح والخسارة.

وما أسهل أن يتنازل المجتمع عن قيمه الأخلاقية إذا ما تعارضت مع قيمه التجارية، ويغض الطرف عن التهتك والانحلال الذي يشيع في الفنون الرخيصة ووسائل اللهو الفاسدة، ولا يضيره أن يكون جسد المرأة العاري هو أساس الإعلان عن البضائع من أجل الربح، بل لقد أصبحَت المجتمعات الرأسمالية تُبيح الحرية الجنسية لأفرادها من الرجال والنساء من أجل تكديس رأس المال وتقوية النظام الرأسمالي الاستغلالي.

وتتحمَّل النساء أكثر من الرجال وزر زيف المجتمع، وتدفع النساء أكثر من الرجال ثمن التعارض الذي يُواجهُه المجتمع بين قيمه التجارية وقيمه الأخلاقية، والسبب في ذلك هو أن الرجل هو الذي يحتكر الحكم في المجتمع وهو الذي يصدر القرارات التجارية والأخلاقية المتعارضة.

وتعيش المرأة التناقض الاجتماعي بحدة؛ فهي يجب أن تكون باردة عفيفة طاهرة لا تحس الجنس، وهي يجب أن تكون أداة متعة وتشبع زوجها بالجنس حتى الثمالة، وجسدها عورة يجب إخفاؤه بمقاييس الأخلاق، وجسدها مباح ويجب تعريته بمقياس الرواج التجاري والإعلانات عن البضائع، ولا أظن أن هناك استغلالًا أشد من هذا الاستغلال، ولا امتهانًا أشد من هذا الامتهان اللذين تعيشهما المرأة؛ فهي تصبح فريسة بين قوتين متنازعتين متضاربتين كقطعة لحم بين فكين ضاريتين.

وكل هذا طبيعي في مجتمع فقدت فيه المرأة مكونات شخصيتها وأُفرغت من إنسانيتها، وتحولت إلى شيء أو أداة؛ فهي تارة للإعلان، وهي تارة أداة للشراء والاستهلاك، وهي تارة أداة للإمتاع وخدمة الشهوات، وهي تارة وعاء للأطفال، وهي تارة سلعة تباع وتُشْتَرى في سوق الزواج.

ويَسري بالطبع عليها ما يسري على الأشياء؛ فهي أكثر قيمة حين تكون جديدة أو «بكرًا» لم تُسْتَخْدَم من قبل، ويهبط ثمنها بالاستخدام السابق أو الزواج السابق وتصبح امرأة نصف عمر، لا تجد من يتزوَّجها إلا رجل من ذوي العاهات أو الأمراض يعدُّ نفسه مناسبًا لها.

وتستمدُّ الفضائل مضمونها من هذه النظرة المبتورة إلى المرأة التي خبرت الرجل والحياة لا تصبح أقل من المرأة الجاهلة الساذجة فحسب ولكنها تُصبح مرفوضة كأنما الخبرة عاهة.

ولأنَّ الرجل يشتري المرأة بالزواج لتخدمه وتكون أداة إمتاعه ووعاء ينجب أطفاله، فهو يختار تلك الفتاة التي تصغره في السن بأعوام كثيرة ليظل جسدها شابًّا قادرًا على الخدمة والإنجاب طوال حياتها معه لا تدركها الشيخوخة أبدًا طالما هو على قيد الحياة وإن أصبح عجوزًا في التسعين من عمره. إن رجلًا في الأربعين لا يتردد في الزواج من طفلة في السادسة عشرة، بل إنه قد يكون في الخمسين أو الستين ويعدُّ نفسه مناسبًا لفتاة في العشرين أو أقل من ذلك أيضًا!

والرجل يُفضِّل الفتاة الغريرة الساذجة أو «القطة المغمضة» فلا تعرف لنفسها ولا تدرك لجسدها رغبات، ولا تفطن إلى أن عقلها له احتياجات وطموح، وهذا طبيعي بمنطق

البيع والشراء؛ فالذي يذهب إلى السوق ليشتري عبدًا أو يؤجر خادِمًا فإنما يختار الأكثر شبابًا ليعمل كثيرًا بغير كلل أو ملل، والأقل ذكاءً والأقل احتياجات ليأكل ولا يُطالب لنفسه بشيء، وبهذا يكون إنتاجه أكبر ما يُمكن واستهلاكه أقل ما يمكن، ويحصل مالكه أو مستأجره من ورائه على ربح كبير.

ومن هنا نظرة الرجل إلى المرأة كجسدٍ يجب أن يكون شابًّا دائمًا، ويقلُّ سعر المرأة كلما تقدمت في العمر، ومن هنا مفهوم المجتمع لشباب المرأة وجمالها … شباب المرأة هو تلك السنوات التي تكون فيها قادرة على الخدمة قادرة على الإنجاب، وتبدأ من يوم ابتداء الطمث (في المتوسط يكون عمر الفتاة ١٥ عامًا تقريبًا) وتنتهي بانقطاع الطمث (في المتوسط يكون عمر المرأة ٤٥ سنة تقريبًا).

وهكذا ينكمش عمر المرأة عن عمر الإنسان الطبيعي ويصبح ثلاثين عامًا فقط تعيشها (هذا إذا أسعدها الحظ واستطاعت أن تنجو من المشاكل العديدة التي تتربص بها)، فإذا ما انقطع الطمث قيل: إنها وصلت سن اليأس وأصبحت وكأنما انتهت حياتها.

وبالرغم من أن تكوين المرأة الجسمي والنفسي يساعدها على أن تعيش عمرًا أطول من عمر الرجل في معظم الأحيان، إلا أن المجتمع حَكَمَ على المرأة بعمر يكاد يكون نصف عمر الرجل؛ ففي الوقت الذي يصل فيه الرجل في نظر المجتمع إلى قمة النضوج الإنساني وقمة الشباب (٤٠–٤٥ سنة) تصل فيه المرأة إلى سنِّ اليأس، وتُصبح — وهي في قمة نضوجها وشبابها واكتمال خبرتها بالحياة — عجوزًا عاقرًا انتهت مهمتها في الحياة وتُدْفَن اجتماعيًّا وهي على قيد الحياة.

ويستمد الجمال مفهومه من هذه النظرة المحدودة إلى المرأة؛ فالمرأة الجميلة هي الفتاة الصغيرة صاحبة الجسد الغضِّ وإن كان عقلها جاهلًا أو مشوهًا، يحكم المجتمع على جمال المرأة بمقاييس جسمية فحسب، ويُصبح جمال المرأة مرهونًا بحجم أنفها وحجم شفتيها ونهديها وردفيها، ويعيبها أن يزيد حجم أنفها بضع ملِّيمترات أو أن تقلَّ استدارة ردفيها بضعة سنتيمترات، أما الرجل فلا شيء يعيبه إلا «جيبه»، وإن كان له بدل الأنف اثنان وبدل البطن كرش عال.

ويُثبت الفن والأدب هذا المفهوم المحدود للجمال، وكم من أغانٍ وأشعار وروايات ترنَّمت بتلك الحسناء التي يتهدَّل شعرها على كتفَيها الناصعتَين المستديرتين، وعيونها ذات الأهداب الطويلة وشفتيها القرمزيتَين ونهديها البارزين وخصرها الضامر وساقيها … إلخ، وكأنما جمال المرأة ليس إلا جمال جسدها، أما عقلها وشخصيتها فلا أحد يهتم بهما.

وكما استمدَّ الجمال مفهومه القاصر من النظرة الاجتماعية القاصرة إلى المرأة كذلك يعبر مفهوم الأنوثة عن هذه النظرة ذاتها؛ فالأنوثة هي الضعف والسذاجة والسلبية والاستسلام، وهي صفات كلها تتفق مع الدور الذي حدَّده المجتمع للمرأة وهو خدمة الرجل وإرضاؤه، الأنوثة هي أن تتميَّز المرأة بصفات الخدم المطيعين المُستسلمين الضعفاء، أما الرجولة فهي أن يتميَّز الرجل بصفات الأسياد من قوة إيجابية وحزم وعقل وحكمة.

واستمد الشرف مفهومه من هذه النظرة، شرف البنت مثل عود الكبريت يولع مرة واحدة، وبعدها تنتهي البنت وتُلْقَى في صفيحة القمامة كعود الكبريت المستهلك، أما شرف الرجل فيمكن أن يولع آلاف المرات أو ملايين المرات ولا يستهلك أبدًا.

ولن تتغير مثل هذه المفاهيم ما لم تتغيَّر نظرة المجتمع إلى المرأة كجسد فحسب، لن تتغير هذه المفاهيم إلا بعد أن تُصبح المرأة في نظر المجتمع إنسانة متكامِلة العناصر جسمًا وعقلًا ونفسًا.

حينئذ يُصبح جمال جسمها وعقلها ونفسها، ويصبح جمال الرجل هو جمال جسمه وعقله ونفسه، ولن يكون الجمال مفروضًا على المرأة وحدها، بل كل إنسان — رجلًا كان أو امرأة أو طفلًا أو كهلًا — يجب أن يكون جميلًا بهذا المعنى الشامل للجمال (جمال الجسم والنفس والعقل)، جمال النفس هو ذلك الجمال الذي يشعُّ من نفس سليمة بغير عقد، هو تعبير الصدق والحب في العينين، هو حيوية النفس ومرحها وإقبالها على الحياة، وجمال العقل هو ذلك الجمال الذي يشع من الأفكار المتقدمة التي تحقِّق للإنسان يومًا بعد يوم مزيدًا من الرقي والحب والإخاء والعدالة والمساواة.

وجمال الجسم ليس مجرَّد استيفاء مقاييس موضوعة، وإنما هو صحة الجسم ورشاقته وخفَّته وقدرته على أداء وظائفه بأعلى كفاءة، القوام لا يكون جميلًا إلا إذا تحرَّك الجسم كله برشاقة وخفة من أجل هدف ورغبة صادقة، العينان الجميلتان لا تكونان جميلتين إلا بمقدار ما تعبران عن صدق المشاعر والأفكار، الجمال هو الصدق والصدق هو الطبيعة والطبيعة هي قدرة الجسم والعقل والنفس على أداء وظائفها بأعلى كفاءة ممكنة، الساقان خُلِقَتَا لتسيرا وليس للانثناء فوق الشلتة، والمخ خُلِقَ ليستقبل المعلومات ويستنتج منها أفكارًا جديدة وليس للجمود داخل الجمجمة حبيس الأفكار القديمة والخزعبلات، القبح هو أن يُطلَّ الكذب من العين (أي عين) وإن رُسِمَت بمهارة فائقة بخطوط وظلال حديثة، واليد خُلِقَت لتعمل وتبتكر، أما اليد التي لا تعمل شيئًا سوى أن تدلك أصابعها بالكريم فهي يد عاطلة قبيحة مهما بلغت أصابعها من النعومة والبضاضة، والأعضاء

التناسلية خُلِقَت لتُمارس وظيفتها الجنسية وليس لأن تُخْصَى أو تُبْتَر أجزاؤها، الشرف هو صدق الجسم وصدق العقل وصدق النفس في كل إنسان سواء كان رجلًا أو امرأة، والأنوثة هي إيجابية المرأة في الحياة وقدرتها على استخدام جسمها وعقلها ونفسها بأعلى كفاءة، والرجولة هي إيجابية الرجل في الحياة وقدرته على استخدام جسمه وعقله ونفسه بأعلى كفاءة.

وهكذا نجد أن الفروق بين الرجل والمرأة تتلاشى وتتلاشى معها الصفات والمفاهيم التي تفرق بينهما، والتي تجعل الرجولة نقيض الأنوثة، والأنوثة نقيض الرجولة.

الأسرة والمدنية

إنَّ الأسرة الأبوية التي بدأت ببداية الملكية وازدهرت في العهود الإقطاعية واستمرت في العهود الرأسمالية؛ أصبحت تمرُّ بمرحلة دقيقة خطرة بعد أن ساعدت المدنية والتقدم الصناعي المتزايد على عزلها شيئًا فشيئًا، وتقليل عددها وتقطيع أواصرها وصلاتها، حتى أصبحت الأسرة حين تغلق بابها عليها تصبح وكأنما انفصلت عن الدنيا وانفصلت الدنيا عنها.

ويُجْمِع علماء المجتمع على أن الأسرة في المجتمعات الصناعية المتقدمة قد وصلت إلى مرحلة التناقض مع المجتمع، ولعل هذا هو السبب في ذلك التفكك الذي أصاب الأسرة، وأصبح كالظاهرة العامة في معظم هذه البلاد المتقدمة؛ فالزوج إما هارب أو يفكر في الهرب من زوجته، والزوجة إما كَسَرَت قيود الملل والوحدة والخدمة أو تفكر في كسرها، والأبناء والبنات ضجروا من آبائهم وأمهاتهم وهربوا من البيت المنعزل البارد، وتجمَّعوا على شكل حركات ثائرة متمردة بعضها هيبز وبعضها بيتينكس وبعضها بيتليز ... إلخ، يستعينون بالمخدرات والمنبهات على خلق المجتمع الذي يُريدون.

ولا شكَّ أن كثيرًا من الناس لا يدركون التغيُّر الذي يحدث في العلاقات الاجتماعية؛ لأنها تتغير ببطء، كذلك بالنسبة للعلاقات الأسرية التي تتأثر بطبيعة الحال بنظام المجتمع، ولو أننا تتبعنا تغير المجتمع الإنساني من البدائية إلى المجتمع الزراعي ثم الصناعي؛ لأدركنا التغيُّرات التي حدثت في الأسرة بتغير نظام المجتمع.

ويمكن لنا أن نُدرك أثر التصنيع على الأسرة التي شكَّلها من قبلُ المجتمع الزراعي إذا تتبعنا ما فعلته المدنية (التي نتجت عن التصنيع والتقدم العلمي) بالمجتمع؛ فقد أحدثت المدنية تقسيمًا في جميع الأعمال والوظائف التي كانت تتم داخل الأسرة. إن التقسيم

الاقتصادي للعمل في المجتمع المتمدين الحديث يرتكز على الفصل بين وحدات الإنتاج التي تنقسم بدورها إلى عديد من الفروع والتخصصات.

وفي مجتمعنا الحديث يُمكننا أن نفرق بين تخصصات وقطاعات مختلفة مثل الاقتصاد والسياسة والثقافة والشئون الاجتماعية والشئون الدينية ... إلخ.

وهكذا سببت المدنية الفصل بين العلاقات التي كانت قائمة داخل الأسرة الجماعية البدائية، ولا شكَّ أن هذا الفصل قد أتاح نوعًا من الاستقلال وانعزال كل قطاع عن الآخر، ولم يعد من المُمكن (إلا لقلَّة قليلة من الناس) أن تحتفظ بنظرتها الشاملة لمختلف القطاعات وأن تلمس تأثير أحدها على الآخر.

ولعلَّ أهم نتائج هذا الفصل هي تلك التي حدثت من الفصل بين أعمال الفرد الواحد؛ فالذي يعمل مثلًا في قطاع السياسة وفي قطاع الثقافة لا بدَّ وأن تكون له وظيفتان، ولا بد أن يقسم نفسه بين مركزَيه.

وقد وقع هذا الفصل بشكل حاد واضح حين انتقلت أعمال الإنتاج خارج البيت والأسرة وانتقلت معها علاقات العمل أو العلاقات المهنية، ولم يكن هذا الفصل عضويًّا فحسب؛ لأن العلاقات داخل الأسرة تختلف كثيرًا عن العلاقات في المجتمع الكبير. إن العلاقات الأسرية في أساسها علاقات شخصية وعاطفية، أما العلاقات في مُختلف قطاعات المجتمع فهي في أساسها علاقات نفعية غير شخصية.

وقد قسَّم علماء المجتمع الوظائف الأساسية الضرورية لاستمرار بقاء المجتمع إلى خمسة أقسام:

أولًا: الوظيفة البيولوجية أو التناسل: إن شرطًا أساسيًّا لاستمرار أي مجتمع وبقائه أن يعوض موتاه بالمواليد الجديدة، وإن جميع الأسر بجميع أنواعها البدائية والمتحضِّرة تقوم بهذه الوظيفة.

ثانيًا: الوظيفة الاقتصادية: إن احتياجات الحياة لا بد أن تنتج وتوزع بين أفراد ذلك المجتمع.

ثالثًا: الوظيفة السياسية: على كل مُجتمَع أن يخلق الوسائل التي بواسطتها يحقق نظامًا داخليًّا وخارجيًّا لمواجهة الصراعات.

رابعًا: الوظيفة التعليمية: إن الأحداث والنشء والأطفال الصغار لا بد أن يتدربوا ليصبحوا أعضاء عاملين يشاركون في أعمال المجتمع المختلفة.

خامسًا: الوظيفة الدينية: لا بد أن تُوجد الوسائل لحل الأزمات العاطفية والاحتفاظ بالإحساس بمعنى الحياة، وأن يوجد الانسجام بين أهداف الفرد وأهداف المجتمع.

ويقول علماء المجتمع: إنَّ هذه الوظائف كانت تتمُّ جميعًا داخل الأسرة الزراعية قبل عهد التصنيع. كانت الأسرة كبيرة العدد يعيش فيها الأب مع أبنائه وأحفاده، كانت الأسرة تنتج وتستهلك ما تنتجه وتكفي ذاتها، وكان الأبناء يتعلمون من آبائهم ثم يعملون معهم، وكانت النساء والبنات يقمن بأعمال البيت وإعداد الطعام.

كانت الأسرة وحدة سياسية بذاتها، وكان رؤساء القبائل هم أصحاب السلطة، وهم الذين يضعون القرارات ويحكمون سياسيًّا، كانت قوة الفرد تعتمد على قوة أسرته ولم يكن في إمكان فرد أسرة أن يفعل شيئًا أو تكون له قوة ما، وكان وضع المرأة أقل من وضع الرجل بعد أن أصبح الرجل هو مالك الأرض وسَلَبَ منها حقَّها في النسب وأصبح هو صاحب الحق في الإنتاج، وحرم المرأة حقها من الإنتاج وترك لها حق الاستهلاك فحسب، وهكذا أصبح هو الذي يعول وهي التي تخدم.

وتطور المجتمع وعُرِفَت الصناعة وتطورت وحدثت المدنية وانعكس كل ذلك على الأسرة، ويقول علماء المجتمع: إن هذا الثلث الأخير من القرن العشرين يشهد نوعين من الأسر هما نتاج التطور الصناعي والمدنية الحديثة: النوع الحديث جدًّا من الأسرة والذي بدأ يظهر ويغزو المجتمعات المتقدمة في بعض بلاد أوروبا وبعض أجزاء أمريكا ويُسميه العلماء بالأسر الجماعية أو «الكوميون»، والنوع الثاني هو الأسرة التقليدية الشائعة في معظم أنحاء العالم ويُسمِّيها العلماء بالأسرة الوحيدة النواة، وتتكوَّن من الأب والأم وأولادهما فقط، أما في أسر الجماعية أو الكوميون فإن مجموعة من الناس تعيش معًا داخل هذا الكوميون يتقاسمون كل شيء بالتساوي، فإذا ما حدث زواج بين الرجل وامرأة فإنهما يحصلان على حجرة واحدة لهما، وحين تلد الأم طفلها فهي لا تحتفظ به في حجرتها وإنما تأخذه إلى دار الأطفال المنشأة في ذلك الكوميون، حيث يقوم على رعايته عدد من النساء والرجال المتخصصين في رعاية الأطفال، ويمكن للأم إذا أرادت أن ترضع طفلها بنفسها أن تزوره في دار الأطفال في مواعيد الرضاعة، أما إذا لم تستطع إرضاعه لنقص في لبنها أو لأي سبب آخر فهناك الرضاعة الصناعية، ويزور الأب والأم أطفالهم من حين إلى حين ليداعبوهم ويتحدثوا إليهم.

وجميع الأعمال في هذا الكوميون مفتوحة للرجال والنساء بالتساوي، والمرأة تعمل كالرجل ولها نفس الحقوق والواجبات ولا تفقد اسمها بالزواج ولا تتحمَّل مسئولية تربية طفلها.

وقد أصبحت في هذا الكوميون جميع الوظائف الخاصة بالإنتاج والاستهلاك خارج الأسرة، ولم يعد استهلاك الفرد يتأثَّر بطبقة الأسرة الاجتماعية.

وقد قام عدد من الباحثين بدراسة هذا النوع من الأسر، وخرجوا من هذه الأبحاث بأن كثيرًا من المشاكل التي تعترض الأسرة التقليدية قد حُلَّت؛ فقد تحرَّر الأب والأم من قلق وعبء مسئولية الإنفاق على أطفالهما ورعايتهم، وأصبحت العلاقة بين الآباء والأبناء علاقة عاطفية خالصة وحرة لا تُفسدها مطالب الأبناء الاقتصادية الملحَّة وقلق الآباء الدائم لتأمين مستقبل أبنائهم وتعليمهم، وتحرَّرت المرأة من مسئولية أعمال البيت والأطفال، وتفرَّغت كالرجل للعمل خارج البيت، ولم تعُد مشاغل البيت والأولاد تعطلها أو تؤخر فرص نبوغها وتنمية قدراتها الفكرية، وتحرَّر الأبناء من سيطرة الأم والأب عليهم، وتحرَّروا من الفروق الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تفصل بينهم حسب ارتفاع أو انخفاض طبقتهم وأسرهم، وحظوا جميعًا بفرص متكافئة في النمو والتغذية والتعلم والعمل، وتوصَّل الباحثون إلى أن كثيرًا من الأمراض النفسية والعُقَد التي كانت تصيب الطفل في الأسرة الصغيرة قد انتهت؛ فقد كان الطفل في الأسرة الصغيرة يعيش معظم وقته في عزلة موحشة بسبب الانعزال الذي أحدثه التطور الصناعي والمدنية على الأسرة، وبسبب الاتجاه الحديث إلى الإقلال من عدد الأطفال وتحديد النسل، وفي مثل هذه الأسرة المنعزلة القليلة العدد يُحْرَم الطفل من كثير من العلاقات الاجتماعية والإنسانية الضرورية لصحته النفسية ولنمو شخصيته ونضوجها.

وقد كشفت بحوث العلماء في المجتمعات الصناعية المتقدمة أن ازدياد التطور الصناعي قد زاد من عزلة الأسرة بتكوينها الراهن، وأن المشاكل تعددت داخل الأسرة وشملت جميع أفرادها سواء كانوا آباء أو أمهات أو أبناء إلى الحد الذي جعل الأسرة في وضع يتناقض مع صالح المجتمع ويعرقل تقدمه.

وحيث إن المجتمع لا بد أن يبقى ويستمر فلا يمكن للأسرة أن تبقى إلا إذا تغيرت واتخذت شكلًا آخر لا يتناقض مع المجتمع.

وقد وصف أحد العلماء الحال التي وصلت إليها الأسرة في معظم بلاد أوروبا وأمريكا في مجتمعنا الحديث، فقال: إن معظم الأسر تتكوَّن من الأب والأم وطفل أو طفلين، وأن الأب في معظم الأحيان هو الذي يعمل ويغيب طول النهار عن البيت، وأن الأم في معظم الأحيان هي التي تبقى في البيت لتعدَّ الطعام وتنظف البيت وترعى الأطفال.

وقد اتَّضح أن غياب الأب الطويل يترك أثره السلبي في نفسية الطفل، كما أن وجود الأم الدائم يُسبِّب للطفل كثيرًا من المشاكل النفسية الأخرى منها عقدة أوديب، وقد أثبتت أبحاث

الدكتور جاروسلاف كوخ في تشيكوسلوفاكيا أن قدرات الطفل تتعطَّل عشرة أضعاف بسبب الدور الذي يلعبه كطفل أمه ولعبتها المدلَّلة، وقد وضع الدكتور جاروسلاف في بحثه الأطفال الحديثي الولادة في بيئة معينة بعيدًا عن أمهاتهم، وكانت النتيجة أنهم أصبحوا قادرين على تسلُّق السلم في ٨ شهور فقط.

وحيث إن معظم الأسر أصبحت تحدِّد نسلها بحكم التطور الاقتصادي والمدنية؛ فقد أصبح الطفل في معظم الأحيان بغير إخوة أو أخوات، وافتقد بذلك كثيرًا من العلاقات الضرورية لتكوين خبرته في الحياة.

وتنعكس هذه المشاكل على الطفل ووالديه وتتوتر العلاقة بين الآباء والأبناء، وما إن يبلغ الابن سن الرشد حتى يفكر في الهروب من أسرته ليعيش مع من يختار.

وبالرغم من أن التطور الصناعي قد ساعد على أن تخرج المرأة إلى العمل خارج البيت، وأن تستردَّ — بحكم هذا العمل — بعض حقوقها المسلوبة، إلا أن الدور الذي فرضه عليها المجتمع من حيث الخدمة بالبيت وتربية الأولاد يجعلها عاجزة في كثير من الأحيان عن الجمع بين العمل خارج البيت وداخله، وتضطرُّ إلى البقاء بالبيت، ويقول العلماء: إنه ما لم يحمل المجتمع عن المرأة أعباء البيت وتربية الأولاد فلن تحظى النساء أبدًا بالمساواة أو الحرية أو تكافؤ الفرص.

ولأن تربية الأطفال وتعليمهم والإنفاق عليهم هي مسئولية الأسرة الصغيرة المكوَّنة من أب وأم؛ فإن تحقيق المساواة والعدالة بين الأطفال وتحقيق تكافؤ الفرص بينهم لا يمكن أن يحدث مهما تشدَّق المجتمع بهذه الشعارات، وقد قام أحد علماء المجتمع ببحث في السويد بين طلبة الجامعات، فاتضح له أن ١٤٪ فقط من طلبة الجامعات ينتمون إلى الطبقة العاملة، على حين أن الطبقة العاملة تمثل ٥٢٪ من الشعب السويدي، وعلى هذا فإن عددًا كبيرًا من أطفال الأسر من الطبقة العاملة يُحْرَمون من التعليم العالي؛ بسبب عجز آبائهم عن دفع نفقات التعليم.

ويقسم العلماء العلاقات داخل الأسرة إلى ثلاثة أنواع:

- الزواج: حيث تُنظِّم قوانين علاقة الرجل بالمرأة.
- الأبوة (والأمومة): حيث تنظم العلاقة بين الأجيال المتعاقبة.
- الأخوة: حيث تنظم علاقة الأطفال من نفس الأبوين.

ويقوم الزواج على التَّفرقة بين دور الجنسين في الحياة؛ فالرجل يعمل خارج البيت ويعول الأسرة، والمرأة تعمل داخل البيت ويعولها الرجل، وهكذا يقوم الزواج على تأكيد

الفروق بين الرجل والمرأة، ويُثبت العلاقة بينهما من حيث العائل والمعال والمالك والمملوك والخادم والمخدوم، وتختلف قوانين الزواج والطلاق من مجتمع إلى مجتمع في تفصيلاتها، ولكن جوهرها واحد، تمتدُّ جذوره بعيدًا منذ بدء الملكية الخاصة وسلب الرجل لحق الأم الطبيعي، ويشتد عوده في المجتمع الإقطاعي ويستمر في المجتمع الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة والاستغلال.

وكم يُفاجأ المرء حين يطلع على بعض نماذج من قوانين الزواج والطلاق في مختلف المجتمعات، بعضها يبدأ بالنص على أن الزوج يملك زوجته وله حق تأديبها، وبعضها يعطي الحق للزوج أن يُطلِّق زوجته إذا خانته ولا يعطي الزوجة حق تطليق زوجها إذا خانها، وبعضها يعطي الحق للزوج أن يسلب اسم زوجته فتُسمَّى باسمه، ويسلب أموالها ويتصرف في أملاكها كما يشاء، وبعضها يحرم الزوجة من الإرث ويُفضِّل عليها أقارب الزوج من الرجال، وبعضها يحرم الزوجة من أطفالها إذا طُلِّقَت أو يحرمها من نفقة الزوج ... إلخ، نماذج متعددة تدل على نوع العلاقة التي يفرضها الزوج على المرأة.

أما النوع الثاني من العلاقات في الأسرة فهو الأبوة والأمومة، وقد اتضح للعلماء الذين درسوا هذا النوع من العلاقة أن سلطة الأب أو الأم هي أبرز صفة لهذه العلاقة؛ فالعلاقة بين الأب وابنه تقوم على سلطة الأب على ابنه؛ فهي علاقة صاحب سلطة وشخص صغير بغير سلطة، هي علاقة كبير أعلى بصغير أدنى، علاقة عائل بشخص يحتاج إلى هذه الإعالة ولا يستطيع أن يعيش بغيرها، ويقول العلماء: إن مثل هذه العلاقة لا بد وأن تقوم على الأوامر من قِبَل صاحب السلطة والطاعة للشخص الصغير، وهذا يفسِّر تلك المشاكل المتعدِّدة التي تنشأ بين جيل الآباء وجيل الأبناء وذلك العقاب الذي يُوقعه الآباء بأبنائهم أحيانًا حين يحرمونهم من الإعالة أو نفقات التعليم، وذلك الصراع المستمر بين الآباء والأبناء بسبب رغبة الأبناء في التحرُّر من قبضة الآباء، وإصرار الآباء على تشكيل أبنائهم بالشكل الذي يريدونه ووضعهم في القالب الذي وُضِعُوا هم فيه من قبل.

وكما يقول دافيد كوبر: إن نتاج التربية داخل الأسرة هو أبناء حصلوا على الطاعة ولكنهم فقدوا أنفسهم وإرادتهم وشخصيتهم.

هذا بالإضافة إلى الأضرار النفسية التي ثبت أنها تحدث للأطفال بسبب أمومة أمهاتهم الزائدة عن الحد؛ فالأم في الأسرة الصغيرة الباردة المنعزلة تعوض عن وحدتها بالتصاق شديد بطفلها، وبهذا الحنان المريض تعطل الأم طفلها عن النمو والنضوج، وتحرمه من وسائل تحقيق ذاته بسبب عدم قدرته عن الاستقلال عنها، وقد اتَّضح أن حالات الشذوذ

الجنسي التي أصبحت تتزايد بين الذكور أحد أسبابها تلك الأمومة المريضة في الأسر الحديثة؛ فالأم تفطم طفلها عن اللبن لكنها تعجز عن فطامه نفسيًّا لا بسبب حب الأم، ولكن بسبب أنانية الأم التي تشعر بالوحدة والانعزال، ويختار الابن الشذوذ الجنسي كمحاولة من جانبه ليزيد من إحساسه بذاته عن طريق الاختلاف عن الآخرين، إنها محاولة لينكر أن ذاته لم تنفصل عن أمه وليخفي عجزه عن هذا الانفصال، كما أنها أيضًا رغبة من الابن في إرضاء أمه وعدم إثارة غيرتها وذلك بأن يحب رجلًا وليس امرأة.

أما النوع الثالث من العلاقات داخل الأسرة فهو علاقة الأخوة، وهي العلاقة الوحيدة في الأسرة التي تقوم على المساواة الحقيقية؛ لأنها تتمُّ بين أفراد مُتساوين في الحقوق والواجبات، لكن الأسرة في العالم الحديث أصبحت تفتقد هذه العلاقة السوية رويدًا رويدًا بسبب تحديد النسل والنقص الشديد في عدد الإخوة والأخوات داخل الأسرة.

ويقول العلماء: إنَّ افتقار الأسر الحديثة لهذه العلاقة هو الذي يدفع الشباب إلى البحث عنها خارج الأسرة؛ وذلك عن طريق تجمعاتهم الخاصة حيث يعيشون علاقة الأخوة التي يفتقدونها في أسرهم، وإن تجمعات الهيبز وما شاكلها ما هي إلا محاولات الشباب لتعويض هذه العلاقة الأساسية التي تنقصهم داخل بيوتهم.

ويعتقد البعض أن بدء ظهور الأسرة الجدية الجماعية أو الكوميون ما هي إلا بسبب عجز الأسرة الصغيرة عن تلبية حاجات أفرادها، وأن علاقة الأخوة هي العلاقة الأساسية داخل هذه الكوميونات؛ فالأطفال في دارهم يعيشون معًا ويمارسون علاقة الأخوة مع زملائهم من نفس السن، وقد ثبت أن هذه العلاقة هي التي تُساعد على نمو شخصياتهم وتُكْسِبهم خبرة بالحياة على أسس من المساواة والتبادل العادل، وتلعب دورًا كبيرًا في إثراء نفوسهم بالحب والإخاء وتنمية ملكاتهم على الإبداع والخلق.

إن انعزال الطفل داخل أسرته الصغيرة في المجتمع الصناعي الحديث يُفقر شخصيته ويحرمه من الخبرة والعلاقات الإنسانية المتعددة، ويُعلِّمه الأنانية والانغلاق على نفسه، كما أن علاقته بأبيه وأمه تقوم على الفرض لا الاختيار، فإذا ما مُنِيَ طفل بأب سكير أو أم سكيرة فلا بد له أن يستسلم لهذا القدر؛ لأنه لا يستطيع أن يختار غيرهما.

ويرى بعض الباحثين أن تحرر الأطفال (في الكوميونات) من سلطة الآباء والأمهات جعلهم أسرع في النمو الجسدي والنفسي والفكري، وأن اختلاطهم بزملائهم خلَّصهم من الأنانية والأثرة، كما أن الآباء أيضًا تخلَّصوا من كثير من الأنانية التي تربَّت معهم داخل أسرهم، وأصبحوا يشعرون بالحب لأطفال الغير كما يشعرون بالحب لأطفالهم، وكذلك الأطفال أصبحوا يحبون عددًا كبيرًا من الناس ولا يخافون الغرباء.

وقد ساعد هذا على ازدياد درجة الإنسانية في الفرد، ولم تعُد العلاقة البيولوجية أو رابطة الدم هي التي تفرض نفسها على الأفراد، ولم يعد الأخ يتحيز لأخيه خاطئًا أو مصيبًا لأنه أخوه، ولم يعُد رئيس العمل يتحيَّز لقريبه لأنه من أسرته، ولم يعُد الأب يحنو على ابنه فحسب ويقسو على أبناء الآخرين، وحلَّت العلاقات الإنسانية الإرادية محلَّ العلاقات البيولوجية اللاإرادية، ولم يعد هناك طفل يتحمَّل وزر أخطاء أبيه أو أمه، ولم تعد هناك امرأة تخدم ورجل يسود؛ فقد تخلَّص الزواج من مفهوم النفعية وأصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على أساس من تبادل الحب الحقيقي.

ويقول هؤلاء العلماء: إن هذه الأسرة الجماعية الجديدة بالرغم من بعض المشاكل التي تواجهها إلا أنها استطاعت أن تتخلَّص من ذلك التناقض الحاد القائم بين مصلحة الفرد داخل الأسرة الصغيرة وبين مصلحة المجتمع الكبير. إن الأنانية التي تفرضها الأسرة على الأب والأم وأطفالهما تعزلهم عن المجتمع وتُضعف إمكانياتهم في الإحساس بمشاكل الآخرين.

إن الأب في أكثر المجتمعات تقدمًا في العالم الحديث يستطيع أن يمرَّ بعربته الفارهة بجوار طفل راقد على الرصيف فلا يكاد يشعر بأيِّ ألم أو إحساس يدفعه إلى التوقف لحظة، ويعود إلى بيته حيث يطبع قُبْلَة الرضا والسعادة على وجه ابنه الراقد في راحة ونعيم تحت أثمن البطاطين.

ما هو الحب

يُمكن القول الآن: إن «الحب» الذي يحدث بين الرجال والنساء في عالمنا الحديث، أو الذي كان يحدث في المجتمعات السابقة منذ أن امتلك الرجل الأرض وامتلك معها المرأة ليس هو الحب؛ فالحب لا يُمكن أن يحدث بين سيد وعبد أو صاحب سلطة وخاضع للسلطة أو بين أقوى وأضعف أو بين أعلى وأدنى.

الحب لا يُمكن أن يحدث من أجل الانتفاع والنفعية، ولا يمكن أن يحدث من أجل الاستغلال، أو من أجل المصلحة الاقتصادية أو الحماية الاجتماعية. إنَّ علاقة الحب ليست علاقة تجارية، ولا يمكن أن يشتريها الإنسان بماله أو عقاراته أو سطوته.

لكن الذي حدث في التاريخ هو تلك النكسة الإنسانية التي جعلت جنسًا يسود على الجنس الآخر، وفقدت العلاقة بين الرجال والنساء تكافؤها الطبيعي بحكم أنهم جميعًا من البشر وأن المرأة إنسانة كالرجل لها جسم وعقل ونفس.

وبفقدان هذا التكافؤ لم يعد من الممكن أن تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة بسبب الحب الحقيقي وإنما لأسباب أخرى متعدِّدة.

إن شرطًا من شروط الحب هو التكافؤ، معنى التكافؤ هو أن يكون المحبان متكافئين، إذا كان أحدهما إنسانًا له جسم ونفس وعقل فلا بد أن يكون الإنسان الآخر إنسانًا له جسم ونفس وعقل، ولا يمكن للحب أن يحدث بين إنسان متكامل العناصر وبين آخر ليس له إلا جسد فحسب؛ لأن الحب هنا يفقد شرط وجوده وهو التبادل الجسمي والنفسي والعقلي.

لكن المجتمع استأصل من المرأة عقلها ونفسها فلم يعد في إمكان الرجل أن يتبادل معها الحب، كل ما كان يمكن أن يحدث بينهما هو نوع من الاتصال الجنسي، ليس هو الحب بأي حال من الأحوال، وإنما هو تلك الحركات الجنسية اللاإرادية التي تدفع الذكر

إلى الأنثى من أجل الإخصاب والمحافظة على النوع في جميع الكائنات الحية ابتداءً من الديدان والحشرات إلى الزواحف والثدييات.

ولكن الإنسان يتميز عن الحيوانات والحشرات بقدرته على استخدام عقله ونفسه بطريقة إرادية واعية، وتختلف العلاقة الجنسية في الإنسان عنها في سائر الحيوانات؛ لما حظيَ به الإنسان من تلك الصفات العقلية والنفسية. إن هذه الصفات هي التي تُؤهِّله للاختيار والحرية والمسئولية.

ويقول العالم وادمنجتن: «الإنسان كائن يتميَّز بالوعي والإرادة، وهو مسئول عن أفعاله، هذه المسئولية هي أرقى صفة يملكها الإنسان. إنَّ أي مزيد من الارتقاء هو ارتقاء بهذا المعنى، وهذا هو سبب ذلك الارتباط الوثيق بين حياتنا الجنسية وهذا الارتقاء. إن الجنس ليس هو عملية إنجاب الأطفال فحسب، ولكنه في الحقيقة عملية نتجت من عمليات التطور والارتقاء التي حدثت للكائنات الأدنى وهي تُواصل بذكاء عملية تطورها وارتقائها داخل الكائن فتنقله دائمًا إلى كائن أكثر رقيًّا.»

ومعنى هذا أن الغرض من علاقتنا الجنسية هو إحداث عملية النمو والارتقاء ودفعها إلى الأمام، هو خلق مزيد من الأصالة والحرية والمسئولية للإنسان، وقد خلقت الطبيعة الرغبة الجنسية لتكون أداة لهذا الغرض العظيم، وهذا هو سبب تأثيرها القوي في الإنسان، وكم يكون هذا التأثير مُدمرًا للإنسان إذا انحرفت هذه الرغبة عن مسارها الطبيعي بسبب الكبت وضغوط المجتمع.

الجنس إذن ليس رغبة الجسم وحده، ولكن رغبة الجسم والعقل والنفس؛ ولهذا لا يُمكن لنا أن نفسر الجنس بيولوجيًّا فنقول: إنه ضروري للتناسل، أو نُفسِّره فسيولوجيًّا فنقول: إنه بسبب التغيرات التي تحدُث في نسب الهرمونات في الدم. إن الجنس أكبر بكثير من هذه التفسيرات العملية المحدودة، والتناسل ليس إلا أحد وظائف الجنس المتعدِّدة الشاملة لجميع مكوِّنات الإنسان، التناسل وظيفة الجهاز التناسلي في الإنسان، أما الجنس فهو وظيفة أجهزة الإنسان جميعًا جسمًا ونفسًا وعقلًا.

الجنس عمل إنساني يرتبط بكيان الإنسان لا من أجل التناسل، وإنما من أجل النمو الروحي في الإنسان، وكما قال «بردييف» في كتابه «مصير الإنسان»: «إنَّ معنى اتحاد الرجل والمرأة ليس بسبب استمرار النوع، ولكن بسبب نمو شخصية الإنسان ورغبته الجامحة لبلوغ الكمال والخلود.» ويقول بيتر فليتشر: «البحث عن الحب إنما هو بحث لمعرفة الذات ورغبتنا في الحب هي رغبتنا لأن يُعترف بنا لا من أجل ما «نفعل» ولكن من أجل ما

«نكون»، الحب قد يحتوي على عاطفة ولكنه ليس عاطفة، وقد يحتوي على إعجاب ولكنه ليس إعجابًا، إنه ما يتبقى بعد أن ترضى الرغبة وتنفق العاطفة؛ ذلك الاحتياج لأن يرى المرء حقيقتَه في حقيقة شخص آخر.»

إنَّ مضمون معظم الأديان التي ظهرت في تاريخ البشرية هو أن الله هو الحب، الحب هو إله الحياة في الإنسان ويقابله نقيضه وهو إله الموت، الحب يبني ويثري الإنسان والحياة، ونقيض الحب يفقر ويهدم الإنسان والحياة.

حين يولد الطفل لا يعرف كيف يفرق بين نفسه والعالم الخارجي، إنه يرى نفسه والعالم الخارجي شيئًا واحدًا، ولهذا فهو يحب الأشياء من حوله كما يحب نفسه، يحب نور الشمعة كما يحب يده، فإذا ما لمست يده نور الشمعة وشعر بالألم أدرك من خلال الألم أن الشمعة ليست جزءًا من نفسه، ويتعرَّف الطفل شيئًا فشيئًا على نفسه، وكلما عرفها وأحبها أحب ما يشبهها، الطفل يحب الدمية أو العروسة لأنها تشبهه، وقد بدأت الحياة الإنسانية حين أحب آدم حواء وأحبَّت حواء آدم، لقد وجد كل منهما في الآخر شبيهًا له أقرب إليه من سائر الحيوانات الأخرى.

وتقول جيرمان جرير: إنَّ التشابه دعامة الحب وليس الاختلاف، وقد فهم الرجل خطأً أنه يحب المرأة لأنَّها تختلف عنه، وبسبب تضخيم المجتمع للفروق بين الرجل والمرأة فقد أصبح الرجل يُفضِّل الجلوس والسهر مع صديقِه عن امرأته، إنه يجد في الرجل إنسانًا شبيهًا له، له جسم وعقل ونفس، أما المرأة فإنه يجد جسمها فقط، فكأنما قد أصبحت من فصيلة أخرى غير فصيلته.

وهذا أمر طبيعي؛ فالحب يقوم على التبادل، والتبادل لا يمكن أن يحدث بين كائن من فصيلة أعلى وآخر من فصيلة أدنى، التبادل لا يمكن أن يحدث بين شخصين غير متساويين أو غير متكافئين، إن عدم التساوي أو عدم التكافؤ يجعل أحدهما في وضع أقوى، وتصبح العلاقة بينهما علاقة بين قوي وضعيف أو بين أعلى وأدنى، ومن هنا لا يحدث التساوي المطلوب في التبادل؛ لأن الأقوى — بحكم وضعه — سيستغل الأضعف، ولأن الأضعف — بحكم ضعفه — سيحتاج إلى حماية الأقوى ويتنازل عن بعض حقوقه من أجل هذه الحماية.

والحب لا يُمكن أن يقوم على علاقةٍ يشوبها استغلال، أو يشوبها احتياج للحماية من أي نوع، الحب لا يقوم لأنَّ الإنسان يريد أن يأكل ويشرب أو يتناسل، الحب لا يقوم لأن الإنسان يريد أن يحصل على حماية أو وصاية، الحب ليس هروبًا من مشاكل الحياة، وليس رغبة في الحصول على المأوى أو الأمان أو الضمان الاجتماعي، الحب ليس تبادلًا للمنفعة،

وليس بحثًا عن الراحة في الحياة أو التكيُّف المريح معها، الحب ليس هروبًا من وحدة أو ملل أو فشل.

والحب ليس امتلاكًا وليس سيطرة وليس شعورًا من طرف واحد مهما كان هذا الشعور.

إنَّ هذا الحب الذي تطفح به الأغاني الملتهبة الملأى بالنواح والعويل ليس حبًّا، وليس حبًّا ذلك الذي ساد أدب القرن التاسع عشر والعشرين حيث القصص الملأى بعذابات الحب من طرف واحد.

إن هذه الصفات التي شاعت عن الحب من حيث إنه أعمى وإنه مجنون وإنه قدر يحلُّ بالإنسان من أول نظرة كالسهم القاتل فيصبح أسيرًا له فاقد الإرادة فاقد الوعي فاقد البصر، هذه الصفات ليست صفات الحب.

فالحب ليس سهم كيوبيد ينطلق ويصيب الإنسان، ليس الحب مرضًا، وليس انهيارًا مؤقتًا، وليس حالة من الطغيان العاطفي، الحب ليس جنونًا، والحب ليس أعمى.

إن هذا الحب المريض كان نتيجة طبيعية للوضع الذي وُضِعَت فيه المرأة منذ سلبها المجتمع عقلها واعتبرها جسمًا فقط. إن صفات الإنسان النفسية والعقلية هي التي تميزه عن سائر الحيوانات الأخرى، وهذه الصفات هي التي تمنحه القدرة على الاختيار والوعي والإرادة، فإذا ما فقدها فقد القدرة على الاختيار والوعي والإرادة.

وبرغم أن المجتمع لم يسلب من الرجل ما سلبه من المرأة إلا أن الحب المتكامل لا يمكن أن يحدث من طرف واحد، ولا يمكن للرجل أن يتبادل صفاته النفسية والعقلية مع فراغ، وهكذا عجزت صفات الرجل النفسية والعقلية عن ممارسة التبادل الضروري لنموِّها وازدهارها، وتعطلت شأنها شأن صفات المرأة النفسية والعقلية، ولم يبقَ أمام الرجل والمرأة إلا جسماهما، والرغبة الجسمية (المجرَّدة عن الرغبة النفسية والعقلية) رغبة محمومة لا إرادية، تعتمد على ذلك الانجذاب اللاإرادي الذي يحدث بين المواد بسبب تغيراتها الكيمائية والفيزيوكيمائية.

هذا الانجذاب العشوائي الذي يحدث بين كتلة وكتلة، انجذاب بلا وعي وبلا إرادة وبلا اختيار وبلا مسئولية.

وما أبعد هذا الانجذاب الأعمى عن علاقة الحب الإنسانية الحقيقية؛ فالحب عند الإنسان عملية واعية ترتكز في أساسها على الاختيار الحر والإرادة.

الحب أرقى عملية يمارسها الإنسان؛ لأنه من خلالها تستطيع مكوناته الجسمية والنفسية والعقلية جميعًا أن تمارس أعلى وظائفها وأعمقها تغلغلًا في كيان الإنسان، الحب

عملية واعية فاهمة عميقة، بل لعلَّها العملية الوحيدة التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يصل إلى أعمق أعماق شخصيته.

ومن الحقائق العملية أن الكائن الحي حين يفقِد جزءًا من أجزائه فإنه يعوض عن فقدان هذا الجزء بتضخيم الأجزاء الأخرى، وهذا هو ما يحدث عند الإنسان. إن هذا التضخيم الذي حدث للعلاقة الجسمية بين الرجل والمرأة لم يكن إلا للتعويض عن فقدان العلاقة النفسية والعقلية بينهما، إن هذا التضخيم للانجذاب الجسدي بين الرجل والمرأة لم يكن إلا بسبب فقدان الانجذاب النفسي والعقلي؛ فالحب يقع من أول نظرة حين تقع عينا الرجل على المرأة ويرى شفتَيها الممتلئتين المتوردتين ونهديها البارزين وردفيها المكتنزتين وأغاني الحب وقصص الحب كلها تتغنى بجمال الشفتين والساقَين والنهدَين والخصر والردفين.

وهذا هو السبب وراء تفشي علاقات الحب المريضة سواء في الأدب أو الفن أو حياة الناس الواقعية، والأصل في ذلك يرجع إلى اليوم الذي انقسم فيه الناس إلى نوعَين؛ نوع أعلى ويستحق السيادة والحكم وهم الرجال، ونوع أدنى ويستحق التبعية والخضوع والطاعة وهم النساء.

وتعرَّضت المرأة لجميع أشكال الضغوط والقيود بسبب القوانين التي وضعها الرجل الحاكم، ومن المعروف أن الحكام يضعون القوانين لتسريَ على المحكومين فحسب وليس على الحكام.

واضطرَّت المرأة إزاء هذه الضغوط والقيود المفروضة عليها بالقوة أن تكبت رغباتها الطبيعية. ويقول علم النفس: إنَّ الكبت ينتج عن الخوف بسبب القوة الضاغطة وليس بسبب الخطر الذي يمكن أن يحدث.

ويضطرُّ الإنسان أمام هذه القوة التي يخافها أن يلغي نفسه؛ فالكبت إذن إلغاء النفس أمام الآخرين، وهو أن يفرغ الإنسان نفسه من نفسه ويملأها برغبات الغير؛ لأنه في عملية الخضوع والطاعة تخلَّص من شخصيته وتخلَّص معها من خوفه.

هذا هو ما حدث للمرأة. لقد ألغت نفسها أمام الرجل. لقد تخلصت من شخصيتها لتحصل على الخضوع والطاعة وتحصل معها على الحماية والأمن ورضا الرجل.

إنها عملية وقائية تلجأ إليها كل الكائنات الحية في مواجهة القوى المحيطة بها والتي يمكن أن تُهدِّدها أو تخيفها. إن الانسحاب من أمام القوة وسيلة من وسائل المقاومة عند جميع الكائنات الحية ابتداءً من الأميبا إلى الإنسان، وإن الإغماء الذي يحدث للإنسان أحيانًا حين يستشعر الخطر ما هو إلا محاولة لإلغاء النفس أمام هذه القوة.

وكذلك التماوت أو التظاهر بالموت الذي تجيده بعض الحيوانات حين تواجه قوًى أكبر منها.

في قمة الصراع واليأس يتجاوب الإنسان بالإغماء أو الشلل أو عدم الإحساس أو أية طريقة أخرى للانكماش المؤقت. إنه تخدير في الحواس لتفادي الصراع واليأس.

هذا التخدير في الحواس قد لا يكون نفسيًّا أو عقليًّا فحسب، ولكنه قد يكون جسميًّا وعضويًّا أيضًا. إن عضوًا من أعضاء الجسم قد يفقد إحساسه تمامًا ويصاب بالشلل.

وقد قاومت المرأة الكبت المفروض عليها منذ طفولتها وطوال مراحل عمرها بالانكماش وتخدير الحواس، وأصبحت حواس المرأة مخدَّرة باردة يصعب إثارتها.

ويصف علم النفس كيف يقاوم الإنسان الكبت والمراحل التي يمر بها حتى يصل إلى مرحلة البرود وتخدير الحواس، فمنذ أن تتولد رغبة ما في الإنسان تحدث تغيرات داخل الإنسان تولِّد الطاقة اللازمة لتحقيق هذه الرغبة عن طريق الفعل، فإذا لم يحدث الفعل وكُبِتَت الرغبة حدث في الإنسان ضغط كضغط البخار محدثًا أحاسيس جسمية ونفسية سُمِّيت في علم النفس بالعاطفة.

ويصف العلماء ثلاث مراحل يمرُّ بها الإنسان حين تثار عاطفته؛ أي حين يشعر برغبة ما ثم لا يحقق هذه الرغبة بالفعل.

(١) مرحلة حدوث المؤثر: وتبدأ بتولُّد الرغبة في الإنسان بسبب مؤثر وتصاحبها تغيرات جسمية مثل زيادة النبض وسرعة التنفس.

(٢) مرحلة المقاومة: وفيها يستعدُّ كل عضو في الإنسان للعمل وفق هذا المؤثر وهي مرحلة بناء تُثري الإنسان وتقويه وتجدد نشاطه، ولهذا فإن غياب كل التحديات ليس صحيحًا، ولا بدَّ للإنسان من أن يواجه تحديات وصعوبات ليقاومها، فإذا ما انتصر عليها فاز بالنضوج.

أما إذا كانت هذه التحديات أكثر قوة منه فانتصرت عليه فإنه يدخل إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة الإرهاق.

(٣) مرحلة الإرهاق: ويُصبح فيها الإنسان أقل حساسية لهذه الضغوط والمؤثرات الاجتماعية، يصبح جلده أقل حرارة، ويصبح ذكاؤه أقل؛ أي إنه ينطوي على نفسه لا ليبتعد عن هذه المؤثرات فحسب ولكن ليبتعد عن الحياة ذاتها، وتزيد عملية الهدم داخله عن عملية البناء، إنها مرحلة هدم إذن يقتل فيها الإنسان نفسه شيئًا فشيئًا.

وهذا هو ما يحدث للمرأة، إنها تُقاوم ثم تنهزم وتستسلم لمصيرها بعد أن تمر بمرحلة إرهاق تتركها باردة الجسم والنفس والعقل، وهذا هو السبب في أن المرأة لا تثار جنسيًّا في

معظم الأحيان إلا إذا ضربها الرجل أو شد شعرها أو قرصها أو عضها. إن هذه الرغبة في استشعار الألم ما هي إلا رغبة في إحداث درجة أعلى من الانفعال للتغلب على التخدير الذي حدث في الحواس.

الكبت إذن هو السبب وراء ماسوشية المرأة وسادية الرجل، ومن هذا الكبت نبع الحب المريض والأدب المريض الذي يتغنَّى بالآلام والحرمان والعذابات والتأوهات.

الحب الحقيقي لا يقوم على الحرمان، وإنما شرط من شروط الحب هو التبادل والارتواء، إن الحرمان هو «عدم الفعل» أو الكبت، وهو دمار لشخصية الإنسان، أما الحب فهو «عدم الكبت» هو أن نتصرف ونتَّخذ قرارًا بأنفسنا وعلى مسئوليتنا، والفعل هنا يُثري أنفسنا بصرف النظر عن نجاحه أو فشله؛ لأنه فعل حقيقي صدر عن الشخص ذاته وليس رد فعل للآخرين.

الفعل شرط من شروط الحب الحقيقي، أما الحب الرومانتيكي فهو حب مريض بغير فعل، هو حب محروم يتغذى بالحرمان ويعيش على ردود الفعل.

لم يكن أمام المرأة المكبوتة إلا أن تُضحي بالفعل وتُصبح حياتها ردًّا لفعل الرجل؛ فالرجل هو الذي يفعل والمرأة تنتظر فعل الرجل، وجميع التعبيرات الجنسية تصف الرجل دائمًا بأنه الفاعل وهو الغازي وهو الفاتح وهو المقتحم، أما المرأة فهي المفعول به.

الفعل شرط من شروط النمو النفسي والعقلي ونضوج الإنسان واستقلاله؛ فالذي لا يفعل لا يتعلم، والذي لا يتعلم لا ينضج، والذي لا ينضج لا يستقل.

إنَّ معنى الاستقلال هو أن يتَّخذ الإنسان قرارًا بنفسه ويتصرف على مسئوليته وحده وهذا هو الفعل، أما رد الفعل فهو أن ينتظر الإنسان قرارًا لآخرين فيتصرف وفق قرارهم وعلى مسئوليتهم، إن الإنسان الضعيف غير المستقل غير الناضج هو الذي يتحرَّك بردود فعل الآخرين، إنه يخاف المسئولية ويُفضِّل عليها راحة الطاعة والخضوع.

والإنسان إنسان بقدر ما لديه من قدرة على الحرية والإرادة والاختيار والمسئولية، والحب بين إنسان وإنسان يُصبح حبًّا إنسانيًّا بقدر ما لديهما من قدرة على الحرية والإرادة والاختيار والمسئولية.

لكن المرأة كانت عاجزة — بحكم قيود المجتمع — أن تحظى بشرف المسئولية. فرض الرجل على المرأة وصايته وحمايته وأصبح مسئولًا عنها؛ فالأب مسئول عن ابنته، والأخ مسئول عن أخته، والزوج مسئول عن زوجته، بل إنَّ الابن الذكر يكون مسئولًا عن أمه.

شهدت بعينَي رأسي منذ أيامٍ مشادَّة وقعت بين شابٍّ وأمه التي ربته والتي تبلغ من العمر الخامسة والأربعين، كانت الأم ترتدي ملابسها استعدادًا للخروج فإذا بالابن يمنعها قائلًا إنه مسئول أمام المجتمع عن تصرفاتها.

والزواج في جوهره وقوانينه يجعل الرجل مسئولًا عن زوجته، مسئولًا عن إعالتها، مسئولًا عن تصرفاتها، مسئولًا عن خروجها ودخولها بحيث ينصُّ على أن الزوجة حين تخرج من البيت يجب أن تحصل على إذن زوجها وحين تُسافر يجب أن تحصل على موافَقة كتابية من زوجها وإلا مُنِعَت من السفر.

إنَّ إفراغ المرأة من مسئوليتها إفراغ لشخصيتها من لبِّ الإنسان وجوهره وتميزه عن سائر المخلوقات، وبهذا الإفراغ لم يعد للمرأة إلا قشرتها الخارجية الظاهرية أمام الأعين، لم يعد للمرأة إلا غلافها الجسدي الخارجي.

ولم يعُد أمامها إلا أن تنشغل بهذا الغلاف الجسدي؛ فهي تدلكه وهي تنعمه، وهي تزيل الشعر من فوقه كلما نما، وهي تُعرِّيه تارة وتُخفيه تارة، وهي تنفق عليه كل ما يقع تحت يدها من مال وكل ما تجد عندها من وقت.

ويؤكِّد لها المجتمع من حولها هذه الحقيقة؛ فالصحف والمجلات حين تخاطب المرأة تخاطبها كطبقة من الجلد تحتاج إلى تدليك بأنواع خاصَّة من الكريم، وكرموش تحتاج إلى تقوية وتغذية، وكشفاه تحتاج إلى طلاء بلون الورد، وكشعر يحتاج صبغات تتناسَب مع لون الفستان وهكذا.

والرجل حين يلتقي بها يُفْرِغ في مهبلها سائله المنوي فيَضيع توتُّره البيولوجي الناتج عن ضغط هذا السائل على أعضائه، ويشعر براحة تشبه تلك التي يشعر بها حين يفرغ مثانته من البول، وكما يشيح بوجهه عن الوعاء الذي بال فيه كذلك يُشيح بوجهه عن المرأة التي اتَّصل بها جنسيًّا ويعطيها ظهره، وأحيانًا يبصق بالقرب منها أو بعيدًا عنها حسب مستواه الاجتماعي.

ويعجز الرجل بطبيعة الحال عن حب المرأة؛ لأنه يرى نفسه إنسانًا، أما هي فلا يراها إلا وعاءً؛ فالقدرة على الحب تعتمد على قدرة الإنسان على إدراك حرية الشخص الآخر وحقيقته واحترامها، حين يكف الشخص الواحد عن التصرف وفق رغبته فحسب ويُدرك الشخص الآخر ويحترمه ويعترف به، وهذا يفرق علاقة الإنسان بالأشياء وعلاقته بالإنسان الآخر الذي ليس شيئًا وإنما إنسان مثله تمامًا.

هذا التماثُل هو أصل الحب؛ لأن التبادُل لا يُمكن أن يحدث بغير التماثل. إن الفروق الضخمة التي وضعها المجتمع بين الرجل والمرأة جعلتهما غير مُتماثلَين، فلم يعُد في الإمكان حدوث التبادل بينهما، وأصبحت العلاقة أخذًا من طرف وعطاءً من الطرف الآخر.

وتعلَّم الرجل الأنانية، تعوَّد على أن يأخذ فحسب، تعوَّد على أن رغبته هي التي تحركه فحسب، أما رغبة المرأة فهو لا يعرف عنها شيئًا ولا يتصوَّر وجودها. إن معظم الأزواج لا يُمارسون العلاقة الجنسية مع زوجاتهم إلا حين يرغبون هم، وحين يريدون هم، وبالطريقة التي يريدون، وبصرف النظر عن رغبة الزوجة أو استعدادها لذلك، وإن قانون الزواج يفرض على الزوجة أن تلبي رغبة زوجها في أي وقت من الليل أو النهار حسب مشيئته ورغبته، فإذا ما عجزت لتعب أو مرض اعتُبِرَت في حال لا يُمكن الانتفاع بها كزوجة، ويحق لزوجها أن يتركها ويُسْقِط حقها في النفقة.

إن الأنانية هي الصفة الأولى لعلاقة الرجل بالمرأة، وما هذه الغيرة التي يشعر بها الرجل على امرأته إلا بسبب الأنانية وليست بسبب الحب؛ فالمرأة تصبح ضمن ممتلكات الرجل مثل سيارته أو دراجته أو حماره، إنه يخاف عليها أن تُسْرَقَ منه، وحقده على السارق أكثر من حقده على الشيء المسروق، ومن هنا تلك المشاهد التي رأيناها كثيرًا في الحياة الواقعية وفي الفن والأدب وعلى الشاشة حين يضبط الرجل رجلًا يُغازل زوجته أو حبيبته، فإذا به يُشمِّر أكمامه ليَضربه أو يستل سيفه ويُبارز الرجل على حين تقف المرأة تتفرَّج على القتال.

وإزاء أنانية الرجل كانت هناك تضحية المرأة؛ فالمرأة تُضحي وتُعطي وتسلم نفسها وتستسلم، وكل هذه التعبيرات التي تصف علاقة المرأة بالرجل.

وكما لا يقوم الحب على الأنانية، كذلك لا يقوم الحب على التضحية؛ فالمرأة التي تقول للرجل إنها ضحت بنفسها من أجله امرأة لا تشعر بالحب؛ فالحب ليس تضحية بالنفس وليس نكرانًا للذات. إن نكران المرأة لذاتها أنانية مقنعة؛ فهي تُضحي بنفسها لسبب واحد هو أنها لم تكن تملك هذه النفس؛ فهي تضحي بشيء لا تملكه.

والإنسان الذي فقد ذاته أو نفسه لا يستطيع أن يحب؛ فالحب توكيد لثقة الإنسان في ذاته، وامتداد لحبِّه لنفسه ليحب سائر البشر، والمرأة من خلال ضغوط المجتمع والكبت فقَدت ذاتها وفقدت ثقتها في نفسها، ولعلَّ أكبر دليل على عدم ثقة المرأة بنفسها هو تلك المساحيق الكثيرة التي تحاول بها إخفاء حقيقتها وتلك الطبقة السميكة من الطلاء التي تتنكَّر تحتها. لقد فقدت المرأة ثقتها في نفسها إلى الحد الذي أصبحت فيه عاجزة عن أن تواجه الناس بوجهها الحقيقي، ومن النادر أن نجد امرأة على قدر من الشجاعة والثِّقة بالنفس إلى الحد الذي تخرج به من بيتها بوجه مغسول نظيف بغير مساحيق.

إن تشدُّق المرأة بكلمات التضحية في الحب ليس إلا نوعًا من التجارة، إنها شخصية غير مستقلة وفي حاجة إلى حماية، ومن أجل أن تكسب حماية الرجل فهي تدعي أنها

تعطيه نفسها، والحقيقة أنها فقدت هذه النفس منذ زمن طويل حين قبلت سيادة الرجل ووصايته وتنازلت عن حقها الطبيعي في تحمُّل المسئولية وفي الإرادة والحرية.

ولكن ما من طريق آخر تجده المرأة أمامها. إنَّ الزواج الذي تسعى إليه لتحتمي في رجل لا يمثل لها بر الأمان؛ فهي في ظل الزواج مهددة دائمًا بأن يتركها الرجل بسبب أو بغير بسبب، وهي بغير رجل لا تستطيع أن تعيش، إنها في حاجة دائمة إلى الرجل ليعولها أو ليحميها اجتماعيًّا أو نفسيًّا أو جسديًّا، وشتان بين هذه الحاجة والحاجة إلى الحب الحقيقي؛ فالحب هو تلك الحاجة التي يشعر بها الإنسان المستقل بعد أن يُشبع كل ضروريات الحياة، أما المرأة فهي تحتاج إلى الرجل؛ لأنها بغيره لا تستطيع أن تُشبع ضروريات حياتها.

وهذا يفسر لنا كثيرًا من الظواهر التي نراها في الزواج أو في علاقة الرجل بالمرأة؛ فالزوجة تسعى بكل ما أوتيت من جهد أن تربط زوجها بها حتى لا يتركها بسهولة؛ فهي تخدمه وتطيعه وتلبي كل رغباته، إنها تدَّعي البلاهة والغباء أحيانًا لتصدِّق أكاذيبه وتفاهات غروره، إنها تُرضي غروره، وتوهمه أنه الرجل الوحيد على الأرض، إنها تربطه بالبيت بوسائل مختلفة متعدِّدة، مرة تستخدم الأطفال وتلد له منهم أكبر عدد، ومرة تستخدم غريزة حب الطعام فتصنع له كل يوم طبقًا جديدًا، ومرة تستخدم الغريزة الجنسية فتتفنَّن في إغرائه وفي إثارته.

تفعل ذلك كل يوم وكل ليلة بغير كلل أو ملل، إنها تعلم أن التكرار يصنع العادة، وأن العادة حين تتمكَّن من الإنسان تسيطر عليه فلا يتخلَّى عنها.

إنَّ الزواج الذي يستمر ونُسميه زواجًا ناجحًا لم ينجح بسبب الحب وإنما بسبب العادة، والزوج هنا كالمدمن الذي يسوقه إدمانه كل يوم إلى زوجته، إنه قد يكرهها وقد يملها وقد يود في أعماقه لو تخلَّص منها، لكن قدميه تسوقانه إلى داره كل يوم بحكم العادة.

والحب ليس عادة وليس إدمانًا وليس عملًا لا إراديًّا وليس عملًا غير واع، الحب عملية إرادية واعية تتم بسبب قدرة الإنسان على الاختيار الحر، هذه القدرة لا تكون إلا في إنسان مستقل.

إن الاستقلال شرط من شروط نضوج الشخصية، ونضوج الشخصية شرط من شروط تحقيق الذات، وتحقيق الذات شرط من شروط الحب.

وهكذا نُدرك أن القُدرة على الحب هي أعلى قدرات الإنسان وأنضجها وأكثرها وعيًا، وليس هناك من تعبير عن حاجة الإنسان إلى الكمال أبلغ من الحب؛ فالحب ينشأ عند

الإنسان بعد أن يُلبي كل احتياجاته، الحب جوع يشعر به الإنسان بعد أن يُشبع كل رغباته وغرائزه، هذا الحب قادر على تحريك كل ملكات الإنسان في الخيال والابتكار وتفجير كل طاقاته الجسمية والنفسية والعقلية.

والحياة الخالية من الحب هي حياة ناقصة مهما كانت الإنجازات التي يُحققها مثل هذا الشخص في أي ميدان من ميادين النشاط؛ فالحب هو تحقيق الذات، ولا يستطيع الإنسان أن يخدم غرضًا أسمى من تحقيق ذاته، أو أن الإنسان لا يستطيع بدون تحقيق ذاته أن يدرك من تحقيق الأغراض الأخرى شيئًا.

وإذا كان مفهوم «التسامي» قد كُشِفَ، وأنه ليس هناك ما هو أسمى من الجنس بمعناه الصحيح في حياة الإنسان، وأن الشرف ليس هو نكران الجنس والإعراض عنه، ولكن الشرف هو الصدق؛ صدق الإنسان المتكامل جسدًا ونفسًا وعقلًا، الشرف هو صدق الجسد وصدق النفس وصدق العقل.

وإذا كان الحب ينبع من إرادة الإنسان وحريته واستقلاله، وإذا كانت الحضارة تُعرف بأنها قدرة الإنسان على السيطرة على حوافزه وغرائزه؛ فإن الإنسان يصبح أكثر تقدمًا حين يصبح أقوى إرادة؛ وبالتالي حين يتحرَّر من إرادات الغير والضغوط الاجتماعية التي تُفْرَض عليه.

ولا يُمكن للإرادة أن تنمو وتشتد إلا بالتدريب والممارسة شأنها شأن عضلات الجسم تقوى بالتدريب الرياضي المستمر وممارسة الحركات الضرورية للنمو الدائم منذ الطفولة.

إن مكونات الإنسان الجسمية والنفسية والعقلية تنمو وتتطور منذ الطفولة حتى نهاية العمر، ويتوقَّف هذا النمو والتطور على مقدار الخبرات والتجارب التي يمارسها الإنسان منذ لحظة ولادته حتى لحظة مماته.

كما أن أجهزة الجسم المختلفة لا تقْوَى إلا بالتدريب والممارسة الفعلية لمختلف أنواع النشاط الجسمي، كذلك فإن النفس لا تقْوَى إلا بالتدريب والممارسة الفعلية لمختلف أنواع نشاطها وكذلك العقل وكذلك جميع أجهزة الإنسان وأحدها الجهاز التناسلي.

ولا يعني هذا القول أن الخبرة بالجنس لا تُكْتَسَب إلا بتعدُّد العمليات الجنسية مع أكبر عدد من الأشخاص؛ فإن الرجل الذي يُطْلَق عليه اسم «الدون جوان» أو «زير نساء» أقل الرجال خبرةً بالجنس بمعناه الصحيح؛ وبالتالي فهو أكثرهم فشلًا في علاقاته مع النساء، وهذا الفشل هو السبب الحقيقي وراء انتقاله من امرأة إلى امرأة.

إن الجنس ليس حركات جنسية تؤدى، وليس هروبًا من فشل ما أو تعويضًا عن نقص ما، الجنس هو التقاء شخصيتين متكاملتين لقاءً حرًّا، فإذا ما خبر إنسان ما

(رجلًا كان أو امرأة) هذا الجنس فإن هذه التجربة تصبح في حياته خبرة إنسانية حقيقية تثري حياته وتساعد على ازدهار شخصيته وتزيد من قدراته على التفكير الحر والابتكار.

إن النضوج الإنساني يحدث حين تتراكم لدى المرء الخبرات بالحياة والناس، ولا يُمكن لإنسان أن ينضج وتكتمل شخصيته إذا ما عاش وحيدًا منعزلًا عن الناس والمجتمع، وقد حُرِمَت معظم نساء العالم من النضوج بسبب انغلاقهن داخل البيوت وحرمانهن من الخبرات الضرورية للحرية واكتمال الشخصية، وبالإضافة إلى هذا الحرمان فإن ضغوط المجتمع الأخلاقية جعلت المرأة تكبت رغبتها الجنسية، وتكبت معها أيضًا الرغبة في الحرية الشخصية بصفة عامة؛ فالرغبة الجنسية ليست رغبة جسمية فحسب ولكنها رغبة نفسية للحب والحرية.

إن الشخصية الناضجة هي وحدها التي تستطيع أن ترغب الحرية وتسعى إليها دون أن تخشاها، فالحرية تخيف الإنسان غير الناضج غير المُستقل، ومن خوفه منها فإنه يفضل عليها العبودية وأمن التوافق الاجتماعي.

وهذا هو ما حدث للمرأة. لقد حرمها المجتمع من نضوج الشخصية والاستقلال؛ وبالتالي عجزت عن أن ترغب الحرية.

إن عزل المرأة داخل البيت حرمها من الخبرة والوعي، وأصبحت المرأة تجهل الحياة وتجهل الرجل وتجهل نفسها.

والجهل هنا لا يعني غياب المعلومات، ولكنه يعني أيضًا وجود المعلومات الخاطئة والخزعبلات التي ملأت رأس المرأة بسبب تقاليد المجتمع المختلفة.

فما أجهل تلك المرأة التي تتصور أن دمها أثناء الطمث نجاسة! وما أجهل تلك المرأة التي تتصور أن قطع بظرها ضروري لتُصبح طاهرة نظيفة!

والجهل الذي فُرض على المرأة فُرض بطبيعة الحال على الرجل؛ لأن الرجل هو الذي خلق هذه الإشاعات والمعلومات الخاطئة عن المرأة وهو الذي روَّجها لصالح سيادته وسيطرته.

ويهبط جهل الرجل والمرأة بالعلاقة بينهما إلى درجات دنيا تزيد بزيادة ذلك الجهل، ولا يُمكن للعلاقة بينهما أن ترقى إلى مستوى الحب ما لم يقضيا معًا على جهلهما، والقضاء على ذلك يستلزم أول ما يستلزم أن تعود العلاقة بين الرجل والمرأة إلى طبيعتها الأولى بحيث لا تكون هناك سيادة لأحد على أحد.

التمويه

ولا شك أن خروج المرأة من بين جدران البيت إلى العمل هو حجر الأساس الذي يُبْنَى عليه استرداد المرأة لحقوقها الطبيعية كإنسانة.

لكن هذا العمل ينبغي ألا يكون نوعًا من الاستغلال الجديد للمرأة، ويجب ألا يكون تحت سيطرة الرجل كما يحدث في الريف حيث تعمل الفلاحات في الحقل والبيت تحت سيادة الرجل وفي ظل القوانين الجائرة التي تهضم حقوق المرأة.

إن خروج المرأة للعمل تحت سيطرة الرجل وفي ظلِّ القوانين الحالية لا يعني إلا مزيدًا من الاستغلال للمرأة، كما يحدث الآن للمرأة العاملة التي أصبحت تعمل خارج البيت وداخله والتي يُسبِّب لها الإرهاق الجسدي والنفسي كثيرًا من الأمراض والمشاكل تحُول بينها وبين الحياة الصحية السليمة ولا أقول التحرُّر أو الحرية التي تنشدها.

إن الطريق أمام المرأة صعب وشاق يحتاج إلى كفاح طويل، كفاح واعٍ تدرك فيه المرأة الأسباب الحقيقية التي تحول بينها وبين الحرية والمسئولية، ولا تخدعها تلك الحركات المتمردة التي تقوم بها بعض النساء من حين إلى حين في مختلف أنحاء العالم للتحرُّر في ظل المفاهيم القديمة وفي ظل سيادة الرجل.

إن مثل هذه الحركات غير الواعية لا تُفيد إلا أن تمدَّ الصحافة من حين إلى حين بمادة مثيرة طريفة، تجني من ورائها توزيعًا أكثر ربحًا.

وعلى المرأة أن لا تنخدِع بتلك المعلومات الخاطئة والإحصاءات التي تستغلها بعض الحركات التي تُقاوم التقدم.

فمن الطبيعي أن المجتمعات الرأسمالية في مختلف أنحاء العالم لا تُسلِّم بغير مقاومة، ولا تعطي الحقوق إلى مَنْ سلبت منهم الحقوق وعلى قمتهم النساء بغير مقاومة، وتختلف أساليب المقاومة وأسلحتها من مجتمع إلى مجتمع، ومن وقت إلى وقت؛ مرة تستخدم سلاح

الدين وتستغل تغلغله في نفوس بعض المجتمعات، ومرة تستخدم سلاح القيم الأخلاقية وتستغلُّ عدم إدراك الناس بأن هذه القيم من صنع المجتمع ذاته، ومرة تستخدم بعض الإحصاءات والأرقام لتثبت للناس أن المرأة العاملة أقل إنتاجًا من الرجل؛ وبالتالي تنادي بعودة النساء إلى البيوت إنقاذًا للاقتصاد من الانهيار، ومرة تستغل بعض البحوث العلمية القاصرة لتثبت أن المرأة لا تصلح إلا لأعمال التمريض والسكرتارية والتدريس والخدمة، وبذلك تحول بين المرأة وبين المناصب العليا والأعمال الهامة في المجتمع.

ومرة تستخدم علماء النفس من تلاميذ وأتباع فرويد الذين دعموا النظام الرأسمالي بالنظريات النفسية الخاطئة، ويسعى هؤلاء بنظرياتهم التقليدية المتخلِّفة أو نظرياتهم الجديدة التي ترتكز على نفس المفاهيم القديمة إلى أن يجهضوا أي ثورة تقوم بها النساء، أو يقوم بها الزنوج أو الشباب أو العُمال وغيرهم من الفئات المغبونة من الشعب.

ويحاول هؤلاء الفرويديون التقليديون أو تلامذتهم ممن يُسمُّون أنفسهم بالفرويديين الجدد إلى تفسير ثورات الشباب أو الزنوج أو النساء بسبب خلل داخل نفسية الإنسان الثائر، وليس بسبب خلل في النظام الاجتماعي القائم، وليس هذا إلا امتدادًا لنظرة فرويد إلى التمرد على السلطة على أنه نتيجة لعقدة أوديب، حيث تمثل السلطة شخص الأب أمام الإنسان المتمرد، ويحاول الفرويديون الجدد أن يعبروا عن نفس هذا المفهوم وإنما بأسلوب آخر فيقولون: إن التمرُّد على السلطة ليس إلا تعبيرًا خارجيًّا عن عدم مقدرة الإنسان المتمرِّدة على علاج صراعاته الانفعالية الباطنية في اللاشعور.

ويكتب هربرت هندين (أحد تلامذة فرويد المؤمنين بالتحليل النفسي) عن الشباب الثائر ضد سياسة نيكسون فيقول في نيويورك تايمز (١٧ يناير سنة ١٩٧١م):

> «إنَّ هؤلاء الشباب الراديكاليين يعانون من إهمال أُسَرهم لهم التي أصابتهم بخيبة الأمل في تحقيق ما تحتاج إليه شخصياتهم والتي تمعن في تجاهلهم كأشخاص وأفراد مستقلة من البشر.»

وقد كانت الحركات الثورية للعمال والشباب والنساء والزنوج التي ظهرت مع بداية الأزمة الاقتصادية في أوائل الثلاثينيات والمستمرَّة حتى اليوم سببًا في تعديل الأفكار الفرويدية الكلاسيكية لتتمشَّى مع الواقع الجديد، بعد أن عجزت نظرية التحليل النفسي القائمة على غريزة الجنس والموجِّهة للسلوك عن أن تسوق التبريرات المقنعة لهذه الحركات الثورية.

كما أن علم الأجناس في السنوات الأخيرة توصَّل إلى نتائج وشواهد كبيرة أثبتت زيف بعض الافتراضات المبدئية لفرويد ومنها غريزتا: الجنس والموت، ومراحل الجنسية الطفلية وعقدة أوديب. وانتهى روبرت سيرز (نيويورك ١٩٤٢م) إلى أن التحليل النفسي ليس علمًا حقيقيًّا بالقياس إلى معايير العلوم الطبيعية.

وأصبحت مهمَّة الفرويديين الجدد — ومنهم إريك فروم وهربرت ماركيوز — مساعدة المجتمع الرأسمالي في عمل الإصلاحات لأفكار فرويد الكلاسيكية بحيث تلائم العصر، وبحيث تمتص ثورات الشباب والعمال والنساء والزنوج.

إن الرأسماليين يُقاوِمون أي ثورة أو تمرد ضدهم بجميع الوسائل المُمكنة، وأحد هذه الوسائل هي تقديم أفكارهم الاستغلالية في أثواب متنوعة الألوان وتحت عناوين مختلفة الأشكال توحي للناس أنها تغيُّرات على حين أنها لم تتغير.

وهناك محاولات علمية خادعة يقوم بها الفرويديون الجدد لمزج المبادئ الاشتراكية بالمبادئ الفرويدية؛ ومن هؤلاء: فروم وماركيوز ورايخ، إنهم يُحرِّفون الحقائق التي تفسر الفكر والانفعال والسلوك الإنساني، ويدَّعون أن ثورات الشباب والنساء والزنوج ليست إلا صراعات داخل الإنسان أو في اللاشعور.

وكما يقول جوزيف رينولدز: وماذا يُمكن أن يسعد الطبقة الحاكمة أكثر من إقناع الناس بأن مشاكلهم ليست إلا نتاج الصراعات اللاشعورية داخل أنفسهم؟ أو أن تاريخ الإنسان — بحروبه وتفرقته العنصرية واضطهاده — ناتج عن القوى اللاشعورية للتدمير واللبيدو والكبت الجنسي، وليس ناتجًا عن عمل الرأسمالية!

إن علماء النفس الرأسماليين يدفعون الإنسان إلى البحث عن مشكلاته داخل نفسه، وبهذا يقل وعيه فلا يشترك في الكفاح مع الآخرين ضد الأسباب الحقيقية.

ولقد شَوَّهت نظرية فرويد عن التحليل النفسي وأفكارها عن السلوك القهري اللاشعوري كفاح الشباب والنساء والعمال والزنوج من أجل تحقيق العدالة والمساواة بين البشر.

ولا بد لكل امرأة أن تدرك أن نظرية فرويد للتحليل النفسي ألصقت بالمرأة كل صفات النقص الممكنة مثل الهستيريا والماسوشية والسلوك الطفلي والسلبية والغيرة وعدم الإحساس بالمسئولية، ويجب أن تدرك المرأة أيضًا أن تلامذة فرويد وأتباعه والفرويديين الجدد يُبقون على هذه الأفكار المتخلفة عن المرأة، وأنهم يروجونها للإقلال من قيمة أي حركة ثورية تقوم بها النساء؛ ولهذا فإن جميع حركات تحرير المرأة الواعية ترفض جميع الأفكار الفرويدية القديم منها والجديد.

وتدرك المرأة الناضجة الواعية أن ثورة الإنسان ليست بسبب صراعات داخلية في اللاشعور، ولكنها بسبب صراعات خارجية في المجتمع الاستغلالي، وأن النشاط الاجتماعي للفرد هو العامل الأساسي في تكوين نفسيته، وأن الأبوين والأسرة والمدرسة والشارع والعمل والصراعات الاجتماعية كلها تلعب دورًا هامًّا في تكوين الانفعالات والمواقف والسلوك وشخصية الإنسان. وحيث إن وعي الإنسان انعكاس للواقع الاجتماعي فإنه يلعب الدور الرئيسي في تشكيل سلوك الإنسان، تدرك المرأة الواعية أن الإنسان ليس كائنًا عصابيًّا عاجزًا وعبدًا لغرائزه كما يريد له فرويد وعلماء التحليل النفسي، ولكنه إنسان له القدرة على الإرادة والاختيار الحر وتغيير العالم من حوله من خلال قدراته الثورية الخلاقة، وأنه قادر أيضًا على تغيير نفسه وتطويرها دائمًا إلى الأفضل والأرقى.

ويعتبر الدين من أقوى الأسلحة التي يستخدمها المجتمع الرأسمالي لمقاومة حركات التمرد والثورة التي تقوم بها الفئات المضطهدة من الشعب وبالذات النساء؛ لشدة الارتباط بين القيم الدينية والقيم الأخلاقية التي تحكم النساء فحسب.

ولا شكَّ أن تلك الموجة الدينية التي أصبحت تجتاح — في السنوات الأخيرة — بعض المجتمعات الرأسمالية المتقدمة مثل أمريكا وإنجلترا ليست إلا إحدى وسائل المقاومة يستخدمها المجتمع الرأسمالي لمقاومة التقدم.

في زيارتي الأخيرة لإنجلترا في أواخر عام ١٩٧١م لاحظت زيادة اهتمام الدولة بالدين والأخلاق، وقالت لي الأستاذة فانيسا فينتون — وهي إحدى الباحثات في مجال تنظيم الأسرة: إن الجهل بالجنس ظاهرة عامة في بريطانيا، وإن هذا الجهل يؤدي إلى مشاكل كثيرة أقلها تلك الزيادة في نسبة المصابين بالأمراض التناسلية، ومع ذلك فإن الحكام وأعضاء البرلمان ورجال الكنيسة والمسئولين عن التعليم يعارضون فكرة تدريس الجنس بحجة المحافظة على الدين والأخلاق.

وفي الأيام القليلة التي عشتها في لندن في شهر سبتمبر من ذلك العام قرأت في الصحف أكثر من مرة عن تلك الحركات التي تسمي نفسها بالحركات الأخلاقية والتي يقودها رجال من عتاة المجتمع الرأسمالي، ومن حين إلى حين تخرج إلى شوارع لندن وميادينها الرئيسية مجموعات من الناس يحملون لافتات تُنادي بالعودة إلى حظيرة الدين والأخلاق.

وتمتد هذه الموجة إلى كثير من المجتمعات الرأسمالية الأخرى، وقد نشأ في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة عدد من الجمعيات الدينية والأخلاقية تدعو الناس إلى تعاليم الكنيسة والمحافظة على التقاليد، وتهاجم التحرُّر أو ما تُسميه بالانحلال الأخلاقي.

وقد لاحظت هذه الجمعيات أن اكتشاف حبوب منع الحمل قد لعب دورًا في سبيل مساواة النساء بالرجال، واسترداد المرأة لبعض حقوقها الضائعة، فبدأت هذه الجمعيات تهاجم حبوب منع الحمل بحجة أن نسبة الإصابة بالأمراض التناسلية كالزهري والسيلان ارتفعت في السنوات الأخيرة في هذه البلاد، وأرجعت هذه الجمعيات هذا الارتفاع إلى حبوب منع الحمل التي ساعدت على الحرية الجنسية وانهيار الأخلاق.

وتضع مثل هذه الجمعيات على واجهتها لافتة اسمها التسلُّح الأخلاقي لتخفي وجهها الحقيقي الذي يحاول أن يشدَّ الناس إلى الوراء ليَبقى المجتمع الرأسمالي قويًّا راسخًا.

وتستغلُّ هذه الجمعيات جهل الناس بكثير من الحقائق العلمية؛ فإن زيادة الإصابة بالأمراض التناسلية في أي مجتمع ليس بسبب الحرية التي منحتها حبوب منع الحمل للنساء، ولكن بسبب الجهل بالجنس الذي يتفشَّى في جميع أنحاء العالم دون استثناء. وهناك مجتمعات شرقية لم تسمح بدخول حبوب منع الحمل إليها (لأسباب أو مُعتقَدات دينية) ومع ذلك فإن نسبة الإصابة بالأمراض التناسلية فيها تزيد عن أي نسبة في أي بلد من البلاد التي تستخدم حبوب منع الحمل.

لكن التاريخ يزخر بمثل هذه الجمعيات السياسية والنفعية التي ترتدي ثوبًا أخلاقيًّا أو دينيًّا، وتُحاول أن تعكس الحقائق وتشكك الناس فيما تريد أن تشكُّكهم فيه مستغلة تعاطف الناس مع كل من يتكلَّم باسم الأخلاق أو الدين.

وإذا كانت جمعية التسلُّح الخلقي في أمريكا مثلًا جمعية أخلاقية حقًّا أو جمعية مبادئ ودين حقًّا، فلماذا لا تدعو باسم الخلق والدين إلى وقف الحرب في فيتنام، أو إلى مساواة الزنجي بالأبيض؟ لماذا تقتصر دعوتها على محاربة التمرد في نفس الإنسان، وإلى العودة إلى الصلاة وتعاليم الكنيسة وطاعة الرب؟ لماذا تحاول إقناع الناس بأن الانهيار الأخلاقي الذي يُهدِّد العالم ليس إلا بسبب تمرُّد الإنسان وعدم قناعته بما أعطاه الرب، ولعلها تتصوَّر أن الرب هنا هو المجتمع الرأسمالي.

ولا شك أن هذه الجمعيات هي التي تعمل ضد الأخلاق وضد الدين الحقيقي؛ لأنها تقف ضد المساواة بين البشر وضد العدالة وضد السلام بوقوفها مع الذين يؤيدون الحرب والذين ينادون بالتفرقة العنصرية، وبمعاداتها للحركات التحرُّرية التي يقوم بها الزنوج والنساء، وتُسمِّيها حركة تمرُّد وعصيان الرب.

أما حبوب منع الحمل (وغيرها من وسائل منع الحمل) فقد لعبت دورًا كبيرًا في التخفيف من حدة الجهل الجنسي المتفشي في العالم، وذلك عن طريق توضيحها بعض الشيء لمعنى الجنس الصحيح بفصلها بين عملية التناسل البيولوجية والعملية الجنسية.

إن استخدام وسائل منع الحمل في معظم البلاد الآن يرقى بالعملية الجنسية من وظيفة بيولوجية إلى مستوى العمل الإنساني الناضج، ويستبدل عملية تناسلية عشوائية تسيطر على الإنسان بعملية أخرى إنسانية يسيطر عليها الإنسان بإرادته واختياره الواعي، وهذا هو المفهوم الصحيح لمعنى الجنس.

إنَّ إدانة حبوب منع الحمل أو إدانة الحرية سواء كانت جنسية أم غير جنسية، أو إدانة ثورات الشباب أو النساء ليست إلا تغطية على المجرم الحقيقي ألا وهو نظام المجتمع الرأسمالي الذي لا يسوي بين الناس، المجتمع الذي يحترم الآلة أكثر من الإنسان، المجتمع الذي يفرق بين الرجل والمرأة، بين صاحب العمل والأجير، بين زنجي وأبيض، المجتمع الذي يقتل الملايين في حرب الطمع والاستغلال، المجتمع الذي يقتص من الأطفال لأخطاء الكبار، المجتمع الذي يحترم عقدًا من ورق أكثر من احترامه لشعور الإنسان وإرادته، المجتمع الذي يقبل الزيف في حجرات النوم كما يقبله في حجرات الاجتماعات.

على المرأة ألا تنخدِع بمثل هذه الحركات، وعليها أن تُواصل كفاحها من أجل الحرية والمسئولية، وعليها أن تدرك أن واجبها الأساسي في الحياة ليس هو الإنجاب وليس هو الخدمة بالبيت، وأن واجبها الأساسي في الحياة هو المشاركة في تغيير المجتمع إلى الأفضل والسعي لرقي الإنسان.

فالرقيُّ الإنساني هو قدرة الإنسان المضطردة على أداء وظائف في الحياة تزيد على وظائفه البيولوجية والتي يشاركه في القدرة على أدائها جميع الكائنات الحية بما فيها وحيدات الخلية وأقل أشكال الحياة تطورًا.

خطوات على الطريق

والسؤال الذي لا بد أن يُسْأَلَ الآن هو: كيف يحدث التغيير؟ كيف يُمكن أن تُصحَّحَ الأخطاء؟ كيف يمكن أن نقضيَ على الجهل؟ كيف يمكن أن تتغير الظروف الاجتماعية التي تحكم على المرأة بالكبت والتناقض الذي تعيش فيه؟ كيف يمكن القضاء على استغلال الرجل للمرأة في العلاقة الزوجية؟

وقد اتَّضح مما سبق أن تحرير المرأة لا يمكن أن يحدث في مجتمع رأسمالي، وأن مساواة المرأة بالرجل لا يمكن أن تحدُث في مجتمع يفرق بين فرد وفرد، وبين طبقة وطبقة؛ ولهذا فإنَّ أول ما يجب أن تدركه المرأة أن تحريرها إنما هو جزء من تحرير المجتمع كله من النظام الرأسمالي وقيمه التجارية والأخلاقية، وأن كفاحها من أجل التخلُّص من قيم الرأسمالية وتقاليدها ونظمها هو الكفاح المجدي.

وعلى المرأة أن تدرك أيضًا أن الاشتراكية بمعناها الحقيقي من حيث العدالة والمساواة بين البشر لا تكون واقعًا لمجرَّد إعلان الشعارات الاشتراكية، أو إصدار القوانين الاشتراكية، إن تغيير القوانين ضروري، ولكنه لا يكفي لإحداث التغيير، فكم من قوانين تظل حبرًا على ورق.

إنَّ إحداث التغيير يقتضي جهودًا شاقة طويلة في جميع مجالات الحياة على اختلافها وتنوعها.

ولا شك أن من العوامل الهامة في إحداث التغيير هو التربية، تربية جديدة ترتكز على المساواة الكاملة بين المرأة والرجل في جميع مراحل العمر منذ الولادة حتى الممات، مساواة في الحقوق والواجبات خارج البيت وداخله وفي تربية الأطفال.

ومعنى ذلك أن البنت حين تولد يجب ألا تشعر بفرق بينها وبين أخيها أو بينها وبين الأطفال الذكور سواء في البيت أو في المدرسة أو في الشارع، وتتلقى البنت التربية التي تنمي

نفسها وعقلها وجسمها وتعدها للعمل في المجتمع والمشاركة في مختلف مجالات الحياة، ويتلقى الولد التربية نفسها، وتفهم البنت منذ طفولتها أن دورها في الحياة لا يختلف عن دور الذكر، وأن كليهما يجب أن يُعَدَّ إعدادًا صحيحًا لممارسة هذا الدور، وتحظى بالثقة والحرية ولا تخاف من الجنس، ويصبح دور الأم والأب المساعدة على أن تفهم البنت مشاعرها ورغباتها، وأن تمر بجميع المراحل اللازمة لنضوج شخصيتها، ويكون اهتمام الأم والأب بتفوق البنت الدراسي مساويًا لاهتمامهما بتفوق الولد الدراسي، ويكون اهتمام الأم والأب بملابس البنت ومظهرها مساويًا لاهتمامهما بملابس الولد ومظهره، وإذا أظهرت البنت ميلًا إلى الجرأة والإقدام وقوة الشخصية أكثر من أخيها فلا يُنْظَر إليها على أنها مسترجلة أو شاذة، وأن البنت يجب أن تكون هادئة وادعة مستسلمة رقيقة، ولا يُنْظَر إلى أخيها على أنه هو الذي يجب أن يكون الأقوى والأشجع والأكثر إقدامًا. يجب أن تنمَّى صفات البنت الطبيعية وتحصل شخصيتها على كل الفرص للنمو دون أن تفرض عليها صفات معينة يجب أن تتحلَّى بها البنت لمجرَّد أنها بنت؛ فقد تتفوَّق البنت على الولد في الذكاء أو في قوة الشخصية وقد تقلُّ عنه، المهم هو أن يحظى كل طفل (ولدًا كان أو بنتًا) بجميع الفرص التي تُظْهِر نبوغه أو قوته في أي مجال من المجالات.

كذلك يجب ألا يُطْلَقَ على الولد الوديع الخجول الهادئ أنه بنت أو ضعيف الشخصية، فلكل طفل شخصيته واستعداده، وقد ينبغ هذا الطفل الخجول فيما بعد في أعمال فنية تُناسب شخصيته وتكوينه، كذلك يجب ألا يطلق على البنت الجريئة غير الخجولة أنها ولد، فهذه البنت قد تصبح فيما بعد نابغة في الأعمال القيادية والسياسية وغيرها من المجالات التي تناسب شخصيتها.

والتربية ليست بالكلام فحسب وإنما بالعمل والنموذج، لا بد أن يشعر الأطفال أن أمهم مساوية لأبيهم في الحقوق والواجبات، وأنها تخرج إلى العمل مثله وتشترك معه في الإنفاق على البيت، وأنه يشترك معها في تربية الأطفال وإطعامهم وترتيب البيت.

ولا بدَّ للبنت أن تقوم بنفس المسئوليات والأعمال التي يقوم بها أخوها الولد؛ فهي تذهب إلى المدرسة مثله وتذاكر مثله، وهي لا تتحمَّل مسئوليات أو أعمال منزلية لا يتحمَّلها هو، إذا كان النظام في البيت يستدعي أن يُرتِّب كل فرد سريره فيجب أن يرتِّب الولد سريره كما تفعل أخته، ويجب أن يساعد الولد في إعداد المائدة إذا كانت أخته تساعد في إعداد المائدة ... وهكذا لا يشعر أحدهما أن هناك أعمالًا معيَّنة يجب أن يؤديها لمجرَّد أنه ذكر أو أنثى.

وليس معنى ذلك أن تُهْمَلَ الميول الخاصة والاستعدادات الخاصة، مثلًا إذا أظهرت البنت ميلًا إلى أعمال كانت تقتصر على الأولاد مثل إصلاح الأدوات الكهربية في البيت أو أعمال النجارة أو إصلاح صنابير المياه وغيرها، فلا بد أن يُشجَّع ميلها وينمى ولا يقال لها إن هذه أعمال الأولاد وعليها أن تتقن الطبخ مثلًا.

كذلك إذا أبدى ولد من الأولاد ميلًا إلى أعمال الخياطة أو ترتيب البيت أو الطبيخ، فيجب ألا يُنْهَرَ على أساس أن هذه الأعمال نسائية ولا يصح للرجل أن يمارسها.

إن مثل هذه التربية في البيت منذ الطفولة ستضع أسس المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة في حياتهما الناضجة، وتقضي على كثير من العُقَد النفسية التي يعاني منها الرجال والنساء الذين يؤمنون عقليًّا بالمساواة ولكنهم يعجزون نفسيًّا عن ممارستها؛ بسبب التربية الخاطئة التي حدَّدت منذ الطفولة دور كل من الرجل والمرأة في الحياة.

ويجب أن يفهم الأطفال بالتدريج رغباتهم الطبيعية، ولا يخوفوا منه، يجب أن تعرف البنت الصغيرة ما الذي سيحدث لها عند البلوغ، والتغيرات الجسمية التي ستحدث لجسمها، وكيفية حدوث الحيض، وكيفية نمو الثديين والردفين، ومعنى الرغبات الجنسية التي تشعر بها أحيانًا وهكذا.

وكذلك الولد يجب أن يعرف ما الذي سيحدث عند البلوغ، فلا يفاجئه الاحتلام بالفزع، أو التشكك بقدرته الجنسية أو أي شيء آخر، ويجب أن يتساوى البنت والولد في حقهما من الحرية ومن الإحساس برغباتهم الطبيعية التي خُلِقَت معهم وتنمو بنموهم.

ولا بد أن تصبح التربية في المدارس امتدادًا للتربية في البيت وترتكز على نفس المفهوم، فلا يفرَّق بين التلميذات والتلاميذ في أي شيء، يتلقون الدروس نفسها والمواد نفسها ولا تكون هناك مواد خاصة بالبنات كالتدبير المنزلي والخياطة ومواد خاصة بالبنين كالفلاحة والتجارة وغيرها، لا بدَّ وأن تكون جميع الفصول مختلطة تجمع البنات والبنين، ولا بد أن يحصلوا جميعًا — بنات وبنين — على كل المواد بما فيها التدبير المنزلي والخياطة والفلاحة والنجارة وكل شيء.

إن تلقِّي التلميذ الولد لدروس التدبير المنزلي يجعله في المستقبل قادِرًا على مشاركة المرأة مسئوليات البيت نفسيًّا وعمليًّا، فهذه الدروس بالإضافة إلى أنها تزوده بالمعلومات ذاتها إلا أنها تقنعه نفسيًّا بأن هذه الأعمال لا تعيب الرجل إذا أداها، وإنها جزء من مسئوليته مثله مثل المرأة سواء بسواء.

وإن تلقِّي البنت لأعمال النجارة والفلاحة يجعلها قادرة على مشاركة الرجل جميع الأعمال دون أن تشعر بأي حرج أو خجل أو تنتظر الرجل ليقوم بها.

وبهذا تحتاج المدارس إلى أسلوب جديد في التربية، وإلى تغيير في بعض المناهج، وإلى تغيير في بعض الكتب والصور التي تُعْرَض على التلاميذ والتلميذات.

أذكر أن أول كتاب تعلمت منه القراءة كانت فيه صورة لبنت تلبس فوطة المطبخ وقد كُتِبَ تحتها «سعاد تطبخ»، وصورة مقابلة لها لولد جالس إلى المكتب وقد كُتِبَ تحتها «عماد يكتب»، إن مثل هذه الكتب والصور يجب أن تتغير، وتصور البنت جالسة إلى المكتب وإلى جوارها الولد جالسًا إلى المكتب، ثم صورة أخرى وهما معًا يعملان في الحديقة، أو وهما معًا يعملان في المطبخ.

ولن يتَّسع هذا الكتاب لما يجب أن يحدث من تغيير في التربية وأساليبها سواء في البيوت أو في المدارس، وإنما كل ما يُهمني هو التركيز على أن هذه التربية الجديدة يجب أن تسوي بين البنت والولد في كل شيء، وأن تكون هناك لكلٍّ منهما فرص متكافئة للنبوغ في أي مجال يناسب شخصياتهم وميولهم وقدراتهم الذاتية بصرف النظر عن الجنس.

وبالإضافة إلى هذا فإن التربية في حاجة إلى مبادئ وأسس جديدة سواء من ناحية المضمون أو الأسلوب، لا بد أن ترتكز التربية على عدم إخفاء الحقائق وعلى التعريف بكل مكوِّنات الإنسان جسمًا ونفسًا وبيئة، أما أسلوب التربية فلا بدَّ أن يعتمد أساسًا على المناقشة وعلى اشتراك التلاميذ والتلميذات الإيجابي فيها، وعلى تعوُّدهم على إبداء آرائهم وعدم الجلوس صامتين كأجهزة استقبال فحسب يتلقون المعلومات وآراء الغير بالتسليم المطلق دون مناقشة.

لا بد أن يتعوَّد المدرس أو المدرسة على أن يعارضه التلاميذ والتلميذات ويختلفوا معه في الرأي، ومن خلال المناقشة يحدث الاقتناع وليس من خلال الطاعة والأصول والأدب. إن المثل الشائع في مجتمعنا الذي يقول بأن مَنْ علمني حرفًا صرت له عبدًا يجب أن يتغير؛ فالعبد لا يستطيع أن يناقش سيده أو يختلف معه في الرأي، يجب أن تتحرر أمثالنا الشعبية من كلمة العبد والعبودية لأي أحد ولأي سبب؛ فإن هذا الإحساس بالعبودية سواء للمدرس أو الأب أو الأم أو رئيس العمل أو كل من كان في موقع السلطة إحساس متخلف يحول بين الناس والنضوج والاستقلال.

وكما سبق أن ذكرت أن النموذج الذي يراه الطفل (سواء في البيت أو المدرسة) له أهمية بالغة، إن البنت والولد ينظران إلى أمهما وأبيهما كنموذج، أو ينظران إلى المدرس أو المدرسة كنموذج؛ ولهذا لا بد أن تكون الأم نموذجًا للمرأة التي تؤمن بعملها خارج البيت وتحب هذا العمل وتحترمه وتحرص على النجاح فيه، ليس بسبب الأجر الذي تتقاضاه، وإنما لأنها عن طريق هذا العمل تحقق ذاتها كإنسانة.

وقد أجرت روث هارتلي بحثًا بين عدد من الأمهات الأمريكيات العاملات من الحاصلات على درجات جامعية عالية، واتضح لها في هذا البحث أن معظم هؤلاء الأمهات بالرغم من تعليمهن العالي وبالرغم من أنهن يتولين مناصب فنية عالية وأنهن يحببن عملهن ولا يعملن من أجل المال أو الأجر فحسب، إلا أنهن يقلن لأبنائهن وبناتهن إنهن يعملن من أجل الحصول على المال، وقد سألت الباحثة هؤلاء الأمهات: لماذا يخفين حبهن للعمل ويُظْهِرْن فقط السبب المالي؟ وكان رد الأمهات هو: «وأي عذر آخر نلتمسه لخروجنا للعمل وابتعادنا عن أولادنا وبناتنا، حينما نقول لهم إننا نخرج ونعمل من أجلهم ومن أجل تلبية احتياجاتهم المالية فإنهم يغفرون لنا الساعات التي نغيبُها عنهم.»

وتقول الباحثة: إنَّ مثل هؤلاء الأمهات لا يعرفن التربية الصحيحة، وإنهن يُرسِّبن في نفوس أولادهن وبناتهن مفهومًا خاطئًا للعمل عامة، ولعمل المرأة خاصة؛ فالعمل في حياة الإنسان ضرورة نفسية واجتماعية يُحقِّق من خلاله ذاته ويسعى عن طريقه إلى تطوير المجتمع إلى الأفضل والأرقى، أما الأجر المالي الذي يتقاضاه الإنسان عن عمله فليس إلا أحد نتائج هذا العمل وليس الهدف من العمل.

والأم التي تخرج إلى العمل وتشعر بالذنب لأنها تغيب عن أولادها لم تتخلَّص بعدُ من التخلف النفسي والعقلي الذي تعيشه مع النساء بسبب التربية الخاطئة منذ الصغر التي تحدِّد وظيفة المرأة في الحياة بوظيفة الإنجاب وتربية الأولاد.

ولا بد للأم العاملة أن تتخلَّص من تخلفها، وتدرك أن عملها خارج البيت واشتراكها في بناء المجتمع وتطويره هو وظيفتها الأساسية في الحياة كإنسان، أما دورها بالنسبة للزوج والإنجاب وتربية الأولاد فهو كدور الرجل بالنسبة للزوج والإنجاب وتربية الأولاد، ومسئوليات الأمومة مساوية لمسئوليات الأبوة تمامًا، وكلاهما في حاجة إلى مفاهيم جديدة غير مريضة تتساوى فيها الأم والأب في منح الحب والحنان والرعاية لأطفالهما، ويدرك الأب أنه يجب ألا يقضي النهار بطوله خارج البيت ولا يرى أطفاله إلا لمامًا ويترك مسئولية رعايتهم للأم كاملة. إن الأبوة بمعناها الصحيح هي أن يمنح الأب أطفاله حبه وحنانه ويخصص لهم وقتًا يقضيه معهم، وكذلك الأم يجب ألا تقضي النهار بطوله مُلتصقة بأطفالها في البيت ترضعهم حنانًا مريضًا وتعفي الأب من مسئوليات أبوَّته، بل يجب أن تفهم معنى الأمومة الصحيحة من حيث القدرة على منح أطفالها كل فرص النضوج والاستقلال ومنحهم من الحنان والحب القدر المطلوب حتى يُمكن أن تكتمل للأطفال صحتهم النفسية.

وبهذا لا تشعر الأم بالذنب حين تخرج من بيتها إلى العمل، بل إنها تشعر بالذنب حين تبقى بالبيت طول النهار مع أولادها. لقد ثبَت أن بقاء الأم طول الوقت مع أطفالها يضرُّ بصحة الأطفال النفسية ويؤجِّل نضوجهم ويُسبِّب لهم أنواعًا مختلفة من العُقَد.

وفي أبحاث سنة ١٩٥٠م في أمريكا ثبت أن أبناء النساء العاملات لا يعانون من المشاكل النفسية التي يعاني منها أبناء النساء المتفرغات بالبيوت.

هذا بالإضافة إلى أن بقاء المرأة في البيت إهدار لإنسانيتها وقدراتها النفسية والعقلية التي يجب من خلال العمل في المجتمع أن تنمو وتتطور.

إنَّ العمل يساعد على نضوج المرأة فتصبح شخصية مستقلة حققت ذاتها، وحين تحقق المرأة ذاتها من خلال العمل فإنها لن تحتاج إلى أن تعيش من خلال أطفالها وتحقق ذاتها من خلالهم ومن خلال حاجتهم الدائمة إليها، فتلتصِق بهم ذلك الالتصاق الذي يُعْجِزهم عن الاستقلال عنها، والذي يُشْعِرهم بالذنب إذا هم استقلوا عنها، وتشعر مثل هذه الأم بالأسى حين يستقلُّ عنها ابنها الشاب مثلًا، أو يخطب فتاة ليتزوجها، ومثل هذه الأم هي الحماة الأنانية التي تتشبَّث بحقها في ابنها حتى بعد أن يتزوَّج وتحقد على زوجته؛ لأنها خطفت منها ابنها واستحوذت على حبه واهتمامه، وحينما ينصف الزوج زوجته تتَّهمه أمه بأنه لم يكن يستحق أن تنفق حياتها لتربيته، وتشعر بالندم لأنها أعطت لمن لا يرد، فيشعر الابن بالإثم وقد يظن أن زوجته هي سبب المشاكل وتفسد حياتهم الثلاثة، ومن المعروف أن مشكلة الحموات شائعة في جميع أنحاء العالم وسببها هو بقاء الأم بالبيت مع أطفالها.

ولا شك أن الاتجاه العام إلى تحديد النسل يجعل الأم غير العاملة تركز كل حياتها وتصوب كل أمومتها المتضخِّمة المريضة نحو طفل واحد أو طفلين بعد أن كانت توزعها على عدد من الأطفال فيخفف الضرر على الواحد منهم كلما زاد عددُهم، بالإضافة إلى أن الإقلال من عدد الأطفال يمنح الأم سنوات أكثر من الفراغ والوحدة القاتلة فتُصبح في حاجة أكثر إلى العمل والاستفادة من الوقت.

إنَّ تأكيد معنى العمل وهدفه لتحقيق الذات يمنح السعادة لجميع النساء العاملات، ولن تشعر المرأة التي لم تُنجِب أنها لم تحقِّق ذاتها أو لم تصنع بحياتها شيئًا، ولن ينظر إليها المجتمع نظرته القديمة كامرأة عاقر بغير فائدة.

إن تحقيق الذات عند الإنسان رجلًا كان أو امرأة لا يُمكن أن يكون عن طريق إنجاب الأطفال، ومن الخطأ والتخلُّف أن تشعر النساء بالرضا بحياتهن والسعادة لمجرَّد إنجاب

الأطفال. إن العمل ضرورة إنسانية، أما الإنجاب فليس إلا وظيفة بيولوجية تقوم بها جميع الكائنات الحية ابتداءً من الأميبا إلى القرود.

إن الإنسان الذي لا يفهم معنى العمل وهدفه الحقيقي لا يستطيع أن ينبغ في هذا العمل، ولا يستطيع أن يجدد فيه ويطوره إلى الأفضل، ويظلُّ كالآلة يؤدِّيه ويكرر نفسه كل يوم بغير ابتكار أو تجديد، ولا شك أن مثل هذا الشخص يظلُّ قانعًا بالأعمال الصغيرة في المجتمع غير قادر على النشاط في مجالات أكبر؛ ولهذا فإن معظم النساء العاملات وبسبب عدم إيمانهن بالعمل وفهمهن لهدفه الصحيح فإنهنَّ يقنعن بأعمال السكرتارية والتمريض وغيرهما من أعمال الخدمة، والقلة القليلة منهن مَنْ تخوض مجالات فنية كبيرة تثبت فيها نبوغها وقدرتها على الخلق والابتكار.

من إحصاءات أخيرة عن المرأة العاملة في الولايات المتحدة اتضح أن ١٤٪ فقط من النساء العاملات يشغلن وظائف مهنية وفنية عالية، أما الباقي فيشتغلن بأعمال تندرج تحت أعمال الخدمة والسكرتارية وغيرها.

وقد اتَّضح أن الزوجة الذكية الطموحة في كثير من الأحيان والتي قد تنبغ في مجال ما من المجالات تخشى نبوغها، وقد تُفوِّت على نفسها فرصة هذا النبوغ حمايةً لحياتها الزوجية من المشاكل؛ فالرجل الزوج لا زال يشعر بالحرج أو الغيرة حين تتفوَّق زوجته عليه أو يزيد نجاحها عن نجاحه، والعلاج في مثل هذه الحالات ليس هو أن تتخلَّى المرأة عن ذكائها وتتظاهر بالغباء لتهبط إلى مستوى زوجها الفكري، ولكن العلاج هو أن يُدرك الرجل أن تفوق زوجته عليه ليس عيبًا بالنسبة إليه، وليس داعيًا لأن يُصيبه بمركب النقص، فليس من الضروري أن يكون الزوج دائمًا هو الأكثر ذكاءً والأكثر نجاحًا من زوجته، بل إن الزوجة قد تكون هي الأكثر ذكاءً والأكثر نجاحًا فلا ينتقص ذلك شيئًا من الزوج، ولا يُسبِّب ذلك أن تنهار الحياة الزوجية أو تحدث المشاكل.

أما إذا أصرَّ الزوج على نظرته المتخلِّفة إلى زوجته وإلى نفسه وإلى العلاقة الزوجية بينهما، فعلى الزوجة ألا تُضحي بنبوغها من أجل هذا الزوج، وإلا فقد أخطأت في حقِّ نفسها وفي حق المجتمع الذي يحتاج إلى نبوغها ليتطوَّر إلى الأفضل.

إن غيرة الأزواج وأنانيتهم وخوفهم من تفوق زوجاتهم لا يعني أبدًا أن تظل الزوجات خاملات فاشلات إرضاءً لهؤلاء الأزواج، والأجدر بهؤلاء الأزواج أن يتغيَّروا، ويغيروا نظرتهم القديمة إلى المرأة الزوجة.

إنَّ الرجل الحديث قد يقبل أي امرأة رئيسة له في العمل فيما عدا زوجته، كذلك الرجل الذي يعمل كطباخ في فندق مثلًا، إنه يطبخ كل يوم لمئات الرجال والنساء الوافدين على

مطعم الفندق، لكنه إذا عاد إلى بيته شعر بالحرج والضيق إذا طبخ هو ولم تطبخ له زوجته، واعتبر ممارسته للطبخ في بيته عيبًا، أما ممارسته للطبخ في الفندق فليس عيبًا.

والواقع أن الطبخ هو الطبخ بصرف النظر عن المكان الذي يحدث فيه، لكن نظرة الرجل إلى الزواج والمرأة هي التي تجعله يشعر أن زوجته لا بد أن تخدمه وتطعمه، وأنها لا بد أن تكون أقل منه ذكاءً ونجاحًا في الحياة؛ لتستقيم الحياة الزوجية بينهما وتسير في طريقها المعتاد المألوف في المجتمع.

ويظنُّ بعض الناس أن نبوغ المرأة وقوة شخصيتها وقدرتها على السيطرة والقيادة تفقدها أنوثتها، وتُقلِّل من قدرتها الجنسية والعاطفية، لكن «ماسلو» أثبت خطأ هذه الفكرة في بحث له بين ١٣٠ شابة أمريكية من الحاصلات على درجات جامعية؛ فقد اكتشف ماسلو أنه كلما كانت شخصية المرأة قوية ومسيطرة زادَت متعتها في الجنس، وزادت قدرتها على الحب الحقيقي؛ ذلك أن المرأة ذات الشخصية القوية تشعر بأنها حرة وأنها حقَّقت ذاتها واستطاعت أن تكون نفسها الحقيقية الطبيعية، وهذا كله ضروري في الحب والجنس بمعناهما الحقيقي.

وهؤلاء هن النساء بالمعنى الحقيقي للأنوثة، أما المعنى التقليدي لمفهوم الأنوثة الموروث عن فرويد ونظريات التحليل النفسي فقد ثبت بُعده عن العلم الصحيح وعن الحقيقة.

وقد أثبت ماسلو أيضًا أن هؤلاء النساء العاملات القويات الشخصية أكثر سعادةً من النساء الأخريات اللائي يعشن في البيت ويخدمن أزواجهن وأطفالهن، ووجد هوفمان (١٩٦١م) أن الأم العاملة أكثر دفئًا في علاقتها مع أطفالها من المرأة غير العاملة، وأنها أكثر تعاونًا ورقَّة وهدوءًا، وفي بحث آخر اتضح أن ٩٠٪ من هؤلاء الأمهات غير العاملات لا يتمنَّين لبناتهن أن يعشن الحياة التي عشنها هن، وهذا يوضح عدم رضا الأم غير العاملة عن حياتها وإن تظاهرت بالرضا أو بأنها تحقِّق ذاتها من خلال زوجها وأطفالها. إن مثل هذه الأم تكتشف بعد فوات الأوان أنها ضيعت نفسها وحياتها.

إن حركة تحرير النساء في مجتمعنا العربي أو ما يُسمى بالنشاط النسائي يركز الاهتمام على تغيير القوانين التي تنظم العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة أو ما تُسمى بقوانين الأحوال الشخصية، ولا شك أن تغيير مثل هذه القوانين المجحفة بالمرأة ضروري لإقرار مبادئ المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات، لكن التغيير الاجتماعي المنشود يتطلب أن تتحول هذه القوانين الجديدة إلى ممارسة يومية في حياة الناس الخاصة والعامة، وأن تنصهر المفاهيم الجديدة لتصبح نسيج المجتمع الجديد.

إن عملية تحويل القوانين إلى خيوط في نسيج المجتمع ليست بالعملية السهلة؛ فالناس قد يتمسَّحون لتغيير قانون الزواج أو قانون الأحوال الشخصية، ويؤيدون أن تنص مواده على مساواة المرأة بالرجل، ولكنهم يُقاومون مظهر هذه المساواة في حياتهم الشخصية؛ ولهذا فإن حركة تحرير المرأة أو النشاط النسائي لا يستطيع أن يحقِّق الشيء الكثير بالاهتمام بتغيير القوانين فحسب، وإنما لا بد من أن يقترن الكفاح من أجل تغيير القوانين بكفاح مماثل بل أشد من أجل تغيير المؤسسات الاجتماعية التي من خلالها يتحقَّق تطبيق هذه القوانين، وبغير هذا التغيير في المؤسسات الاجتماعية لا يُمكن للقوانين الجديدة أن تطبق وتظلَّ حبرًا على ورق، ويُصبح الانتصار الذي تشعر به النساء لمجرَّد تغيير القوانين انتصارًا أجوف بغير معنى؛ لأنه ليس انتصارًا، ولأن مساواة المرأة والرجل لم تحدث ولم تُتَرْجَم إلى واقع عملي يعيشه الناس.

ولا شك أن المؤسسات التربوية والتعليمية (أي المدارس والمعاهد والجامعات) هي أهم المؤسسات التي يجب أن تغير مضمونها وأسلوبها؛ لأن تربية الأطفال — كما سبق أن ذكرت — هي الأسس التي تُبْنَى عليها الشخصية والتكوين النفسي والعقلي للإنسان، والتي تتحكَّم فيه في مراحل النضوج جميعًا.

ومن المؤسسات الاجتماعية الأخرى التي لا تقلُّ أهمية عن سابقتها: المؤسسات الثقافية والإعلامية وتشمل الإذاعة والتليفزيون والمجلات والصحف والكتب وغيرها من وسائل توصيل المعلومات إلى الناس، يجب أن تتحرَّر هذه المؤسسات من القيم التجارية التي تقوم على تحقيق الربح بأيِّ شكل؛ وبالتالي تكون في غنى عن افتعال الموضوعات المثيرة واستغلال الجنس وجسد المرأة في ترويج بضاعتها للناس.

وأن تحلَّ قيم المساواة الجديدة محلَّ هذه القيم التجارية. إن برامج الإذاعة والتليفزيون مطالبة في مجتمعنا الذي يسعى إلى أن يساوي بين الرجل والمرأة بتقديم برامج للنساء والرجال معًا، ويجب أن تلغى تلك البرامج التي تُسمى بالبرامج النسائية، والتي يقدم فيها طرق الطهي والغسل وعروض الأزياء ومُستحضَرات التجميل، يجب أن توجه البرامج الثقافية للمرأة والرجل على السواء، وتلعب دورًا في تغيير ذلك المفهوم التقليدي الذي يحدد وظيفة المرأة بالطهي والغسل والتزين.

وبالمثل يجب إلغاء كل ما هو نسائي في الصحف والمجلات، وألا تقسم الثقافة التي تُعْطَى للناس حسب اختلافهم ذكورًا أو إناثًا. إن ذلك القسم أو الركن الذي يُسمى ركن المرأة يقدم لها نصائح لتحافظ على نعومة بشرتها وغزارة شعرها وطول رمشها يجب أن تلغى، وليس معنى ذلك أن تُقاطع الصحف ومجلات الجمال كيفية التجميل، ولكن

المطلوب هو أن تنشر هذه الصحف والمجلات المعنى الشامل للجمال كجمال الجسم وجمال النفس وجمال العقل، ويجب أن تقدم للناس رجالًا ونساءً كل المعلومات التي تساعدهم على تجميل أجسامهم ونفوسهم وعقولهم، وبالطبع سوف يحتاج تجميل الجسم إلى وسائل ومستحضرات معينة، ولكنها في ذلك الوقت لن تكون هي كل ما يقدَّم عن الجمال، كما أنها لن توجَّه إلى النساء وحدهن وإنما إلى جميع الناس.

ولا شك أن الزواج والأسرة أحد المؤسسات الاجتماعية التي يجب أن يشملها التغيير، وسواء تغيرت قوانين الزواج القديمة أم لم تتغيَّر فيجب على الزوجة أن تعرف حقوقها وواجباتها وتعرف أنها مساوية تمامًا لزوجها وتتعامَل معه على هذا الأساس.

يجب أن تدرك المرأة أنها مسئولة عن الإنفاق على الأسرة بالتساوي مع زوجها طالَما أنها تتقاضى عن عملها أجرًا مساويًا لأجره، ويجب أن تُدرك أن عملها خارج البيت ليس شيئًا كماليًّا وإنما ضرورة، وأن مشاركتها في الإنفاق على الأسرة ليس تطوعًا منها، وإنما واجب كالرجال سواء بسواء.

كذلك يجب أن يُدرك الزوج أنه مسئول عن أعمال البيت وتربية الأولاد بالتساوي مع زوجته العاملة، وأن واجبات الأبوة مساوية لواجبات الأمومة وقضاء الأب بعض الوقت مع أطفاله بالبيت له نفس أهمية قضاء الأم بعض الوقت مع أطفالها.

وكما يتساوى الزوج والزوجة في واجبات الأبوة والأمومة، كذلك يجب أن يتساويا في حقوق الأبوة والأمومة، ولا تزيد حقوق الأبوة عن حقوق الأمومة في أي شيء بما في ذلك حق النسب وحق تسمية الأطفال.

ولا تقتصر المساواة بين الزوج وزوجته على الحقوق والواجبات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولكنها يجب أن تشمل أيضًا المساواة في الحقوق والواجبات الشخصية والجنسية، يجب أن تدرك المرأة أن حقها في الحصول على قمة اللذة الجنسية (الأورجازم) مُساويًا لحق الرجل، وكما يطالبها الرجل بهذا الحق ولا يشعر بالحرج فيجب أن تطالبه هي أيضًا بهذا الحق دون حرج، وتُساعده على أن يُحقِّقا في الجنس متعته الكاملة لهما هما الاثنين، يجب أن تدرك الزوجة أن الإيجابية في الجنس ليست واجب الزوج فحسب وإنما هي واجبها أيضًا، ويجب أن تشترك مع زوجها إيجابيًّا في كل شيء وأن تتبادل معه كل رأي، وأنه ليس هناك من عيب إلا أن يخفي الإنسان مشاعره الحقيقية ويتظاهر بغيرها.

يجب على الزوجة أن تدرك أن تظاهرها بأنها بلغت قمة اللذة في الجنس بالرغم من أنها لم تبلغها إنما هو العيب أو عدم الشرف؛ لأنه نوع من الكذب، وبصرف النظر عن

هدفها لإرضاء الزوج وإشباع غروره إلا أنه يظلَّ كذبًا، وينعكس أثره النفسي السيئ على الزوجة، بالإضافة إلى أنه يضلل الرجل، والأجدر بالزوجة التي لا تبلغ قمة اللذة أن تُصارح زوجها بالحقيقة، وأن تشترك معه في إزالة الأسباب التي تحول دون تحقيق هذه اللذة.

وقد لا يستطيب الزوج التقليدي مثل هذه المصارحة من زوجته ويعدُّها نوعًا من قلة الشرف عند المرأة، لكن العلاج ليس هو أن تُخفي المرأة الحقيقةَ من أجل إرضاء الرجل التقليدي، ولكن العلاج هو أن يتغير الرجل التقليدي وأن يدرك أن حقوق زوجته في المتعة الجنسية مساوية لحقوقه تمامًا، وأن الشرف ليس معناه إخفاء الرغبات والمشاعر الحقيقية، وإنما الشرف هو الصدق في التعبير عن هذه المشاعر.

ولا أظنُّ أنني بحاجة في مثل هذا الكتاب إلى شرحٍ علمي لتكنيك العملية الجنسية بين الرجل والمرأة والمراحل التي يمرُّ بها ابتداءً من التمهيد النفسي إلى الإعداد والمداعبة وإثارة المناطق الجسمية الحساسة وتعاون الرجل مع المرأة على اكتشاف جسمَيهما معًا وعلى إدراك أفضل الوسائل لبلوغ قمة اللذة. لست بحاجة إلى هذا لأني أعتقد أن فشل العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ليس بسبب جهلها بتكنيك العملية الجنسية، وإنما بسبب الجهل الأعظم، وهو جهل الرجل بالمرأة كإنسان مثله ومساوية له في جميع الحقوق والواجبات في الحياة بما فيها الجنس، وكذلك جهل المرأة بنفسِها وبقيمتها كإنسانة مساوية للرجل تمامًا في جميع الحقوق والواجبات الجنسية وغير الجنسية.

إن تصحيح نظرة الرجل إلى المرأة، وتصحيح نظرة المرأة إلى نفسِها يتبعه بالضرورة تصحيح لكل العمليات التي تحدث بينهما في حياتهما المشتركة بما فيها العملية الجنسية؛ فالعملية الجنسية ليست مجرَّد تكنيك معين أو حركات تؤدَّى أو أوضاع معينة، أو أن لها زمنًا محددًا أو مواصفات معينة لشكل وأحجام الأعضاء التناسلية، أو مراحل معينة يجب أن تمر بها مرحلة بعد مرحلة بنظام دقيق لا يتغير.

العملية الجنسية لها قاعدة ثابتة محدَّدة، وإنما هي تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات والظروف، ولا يمكن لأيِّ شخص أن يحدِّد لزوجين ما يجب أن تكون عليه العملية الجنسية بينهما، إنهما هما وحدهما، وبالتعاون مع بعضهما البعض، يُمكن لهما أن يكتشفا أفضل الوسائل وأفضل الطرق التي يمارسون بها العملية الجنسية.

ولا يقلُّ عن المؤسسات السابق ذكرها في الأهمية: مؤسسات العمل على اختلاف أنواعه ومجالاته السياسية والاقتصادية والمهنية والتشريعية والتنفيذية وغيرها، ولا يُمكن أن

تتحوَّل قوانين المساواة بين الرجل والمرأة في حقوق العمل وواجباته إلى حقيقة فعلية ما لم تشترك المرأة مع الرجل على قدم المساواة في جميع هذه المجالات دون استثناء، يجب ألا تكون هناك مجالات أو وظائف قاصرة على الرجل مثل وظيفة الحاكم والمشرع والقاضي والجندي ورجل الشرطة وغيرها، لا بد أن تُعْطَى المرأة فرصًا مساوية لفرص الرجل في ممارسة العمل الذي تختاره والذي تُريد أن تنبغ فيه. إن الرجل لمجرَّد أنه ذكر لا يستمتع بصفات عقلية أو نفسية تجعله في مهمة القاضي مثلًا أكثر من المرأة، وقد تكون هناك امرأة أكثر قدرة على ممارسة مهنة القضاء أكثر من رجال كثيرين، ومن الظلم أن نحرمها من إثبات تفوقها في هذا المجال لمجرَّد أنها امرأة، وهكذا في المجالات الأخرى.

وحيث إنَّ عدد النساء العاملات والمثقفات أقل بكثير من عدد الرجال فإن تمثيل المرأة في جميع المؤسسات الاجتماعية والتشريعية والسياسية أقل بكثير مما يجب أن يكون عليه، وبالرغم من أن هذا التمثيل يجب أن يكون ٥٠٪ على الأقل ليُعبر تعبيرًا صحيحًا عن نسبة عدد النساء إلى عدد الرجال في المجتمع، إلا أن الأرقام الحقيقية تدلُّ على أن المرأة لا تزال غير ممثلة فعلًا. إن وجود خمسة أو ستة نساء في مجلس يضمُّ ٣٠٠ أو ٤٠٠ رجل لا يمكن أن يسمَّى تمثيلًا بأي حال من الأحوال؛ ولهذا لا يُمكن لمثل هذا المجلس — سواء كان تشريعيًّا أو تنفيذيًّا — أن يتحمَّس لشيء يمسُّ حياة المرأة واحتياجاتها الجسمية والنفسية والعقلية أو يسعى لتحقيق المساواة بين النساء والرجال السعي المطلوب.

لا بد أن يتزايد عدد النساء العاملات في جميع المجالات وبالذات المجالات الهامة مثل السياسة والتشريع والقضاء والأعمال الفنية والمهنية العالية؛ ليُصبح عددهن مساويًا لعدد الرجال في هذه المجالات. حينئذ يُصبح صوت المرأة مسموعًا كصوت الرجل، وتُصبح قوة النساء الاجتماعية مساوية لقوة الرجال، وبهذه القوة الاجتماعية يُمكن للمرأة أن تحقق المساواة التي تنشدها، ويمكن أن تحول القرارات والقوانين من حبر على ورق إلى حقيقة عملية يعيشها الناس كل يوم.

ولكن هناك حقيقة لا يُمكِن إغفالها، وهناك عائق لا يمكن تجاهله يحول دون قدرة المرأة المتزوجة عن العمل خارج البيت، وهو المسئوليات الملقاة على عاتقها وحدها داخل البيت من أعمال الطهي والخدمة وتربية الأطفال، وإذا كان المجتمع ينشد المساواة فعلًا بين الرجال والنساء فلا بد أن يزول هذا العائق بشتى الطرق، كأن يتحمَّل المجتمع عن الأم هذه المسئوليات بأن ينشئ دورًا للحضانة والأطفال في كل مكان، وأن تنشئ المطاعم العامة التي تعفي المرأة من الطهي، وأن يصبح غسل الملابس تابعًا لمؤسسات عامة في

المجتمع، وكذلك وسائل تنظيف البيوت وما شاكلها، ولا بد حتى إتمام هذه المنشآت أن يُساهم الزوج مع زوجته في تحمُّل أعباء البيت والأطفال بالتساوي حتى لا يحرمها من العمل خارج البيت.

إن مطالبة المرأة العاملة بأن تجمع بين عملها خارج البيت وداخله دون معاونة من الزوج أو المجتمع ما هو إلا تعجيز للمرأة واستنزاف لصحتها الجسمية والنفسية والعقلية، بحيث تصل إلى مرحلة من الإرهاق تصيبها بالضرر والمرض وتقلل من إنتاجها وفرصها في النبوغ، ولا أقول مجرد مواصلة العمل، والحل ليس هو أن تتخلى المرأة عن عملها خارج البيت كما يحدث في معظم الأحيان؛ لأن تخلي المرأة عن عملها معناه تخلي المرأة عن حياتها كإنسانة؛ ولهذا فإنها إذا ما اضطرت يومًا أن تختار بين عملها خارج البيت وعملها داخل البيت؛ فالأجدر بها كإنسانة أن تختار عملها خارج البيت. إن أيَّ تضحيات تدفعها المرأة من أجل مواصلتها العمل خارج البيت أقل في رأيي من التضحيات التي تدفعها حين تبقى في البيت، وتستسلم للمصير الذي استسلمت له من قبل أمها وجدتها. إن هذه التضحيات لن تزيد عن غضب زوجها الذي قد يؤدي إلى فشل حياتهما الزوجية، لكن الفشل في الحياة الزوجية أقل ضررًا للمرأة من الفشل في الحياة كلها وفقدان نفسها بين جدران البيت.

ولا شكَّ أن التاريخ يثبت أن معظم النساء النابغات فشلن في حياتهن الزوجية أو رفضن الزواج على الإطلاق، ومنهنَّ جورج إليوت وجورج صاند وسيمون دي بوفوار اللائي رفضن الزواج.

وفي رأيي أنه إذا تعارَض الزواج مع عمل المرأة خارج البيت ونبوغها في الحياة فالذي يجب أن يتغير ليس هو عمل المرأة أو إرادتها في النبوغ، وإنما الزواج هو الذي يجب أن تتغيَّر أسسه ومفاهيمه وقوانينه حيث لا يتعارض مع عمل المرأة ونبوغها.

وأخيرًا فليس هذا كله إلا خطوات على الطريق، وعلى النساء الناضجات الواعيات أن يدركن أن الطريق طويل وشاق، وأنه يحتاج إلى مزيد من الشجاعة والقوة والصبر والتآزر، وإلى مزيد من المعرفة والوعي، لعلَّ هذا هو هدف كتابي، وعليهن أن يدركن أن أي محاولة للتصحيح لا بد وأن تتجه نحو المجتمع والظروف التي يعيش فيها الناس والمعلومات التي تغزو عقولهم ونفوسهم منذ الصغر.

وعلى المرأة أن تُدرك أن نجاح حركتها للتحرير يرتكز على مقدار نجاحها في المساهمة في تغيير المجتمع وتحويله إلى مجتمع اشتراكي حقيقي يُحقِّق المساواة والعدالة لجميع البشر بصرف النظر عن لونهم أو جنسهم أو طبقاتهم الاجتماعية.

هنداوي